التصوف طريقة للعلاج في فكر إدريس شاه

Mysticism is a Method for Treatment in Idries Shah`s Thought

د. ماجدة رمضان مصطفى محمود(*)

الملخص

يعد التصوف بمنزلة فلسفة تدعو إلى نشر المحبة بين الناس، والعبادة، والاتصال الروحي بالله؛ فهو المظهر الروحي للدين، فضلًا عن كونه طريقًا خاصا في الحياة؛ ومن ثم جاءت حاجتنا إلى المنهج الصوفي؛ للتغلب على أزمة عالمنا المعاصر الذي طغت عليه المادية؛ فالإنسان يحتاج إلى حياة روحية يحياها، ومن هنا تأتي أهمية دراستنا للمفكر الصوفي الأفغاني المعاصر "إدريس شاه" (1924- 1996م)؛ الذي ارتكز فكره حول شرح الأفكار والأفعال الصوفية بشكل علاجي إصلاحي وفْق صلتها بالعالم المعاصر، وليس دراسة جامدة للنظريات والبحوث التي تدور حول الفلسفة الصوفية، أي: أنه أوضح لنا النظرة الصوفية للحياة والكون عن طريق المنابع الأصيلة للفكر الصوفي؛ فكان يدعو إلى المحبة والإخاء والأخلاق السامية والارتفاع فوق الماديات، وقد استخدمت في هذا البحث منهجي: التحليلي، والنقدي.

ويهدف لنا هذا البحث الكشف عن حقيقة التصوف في فكر إدريس شاه، بوصفه وسيلة علاجية إصلاحية؛ فالصوفية أصبحت علاجا للمعاصرة، وما يتعلق بها من آثارها المادية؛ وعليه فالتصوف وثيق الصلة بالعلاج؛ ولكن لا يمثل الصوفي الشخص الذي لديه الكرامات والمعجزات، فهذه أمور عارضة، بل هو المدرك للواقع الحقيقي؛ ومن ثم فمعرفته تجمع بين النظرية والممارسة؛ وهنا تأتي أهمية الإرشاد الصوفي؛

(*) مدرس الفلسفة الإسلامية بقسم الفلسفة- كلية الآداب- جامعة الإسكندرية - مصر.

لتحقيق توافق المرء وتوازنه؛ وعليه فالصوفية لا تتعلق بطائفة معينة في المجتمع، بل إنها فطرية في النفس الإنسانية؛ ومن ثم فالتصوف ليس سوى الحياة الإنسانية نفسها؛ ولذلك جاءت حاجة المجتمعات إليه؛ كما أنه ارتبط بعلم النفس، عن طريق تناغم وتوافق الشخص الصوفي مع الواقع؛ ومن ثم كان للتصوف دورا في علاج بعض آفات النفس كالكسل والتقاعس، والغرور، والأنانية، والطمع ... وغيرها من الآفات؛ فعن طريق قيادة الذات؛ والمعرفة الصحيحة بالأمور يمكننا مواجهة ذلك، وهذا ما هدفت إليه التعاليم الروحية للصوفية من تحسين وعي الفرد والشعور بالطمأنينة.

الكلمات المفتاحية:

التصوف، العلاج، إدريس شاه، القصص التعليمية، المعرفة الصوفية، الممارسة، الطب النفسي، التعليم الصوفي، المرشد الصوفي، الطب الروحاني، الطبيب الصوفي، التربية الصوفية، علم النفس الصوفي، المعرفة القبلية، الطريقة الصوفية.

Summary

Mysticism (Sufism) is a philosophy that refers to spreading love and worship among people, and spiritual contact with God. It is the spiritual semblance of religion, as well as a special way of life. Then came our need for the Sufi method. To overcome the crisis of our contemporary world, which is dominated by materialism; Man needs a spiritual life to live, hence the importance of our study of the contemporary Afghan Sufi thinker "Idries Shah" (1924-1996 AD); Whose thought was based on explaining Sufi ideas and actions in a therapeutic and reformative way according to their relevance to the contemporary world, and not a rigid study of theories and research that revolve around Sufi philosophy. That is, he explained to us the Sufi view of life and the universe through the original sources of Sufi thought. He was calling for love, brotherhood, elevated morals, and elevation above material things. In this research, I used two Methods: analytical and critical.

This research aims to reveal the reality of Mysticism in the thought of Idries Shah, as a therapeutic and reformative Method; Sufism has become a treatment for contemporary, and its related material effects; Therefore, Mysticism is closely related to treatment. However, the Sufi does not represent the person who possesses dignity and miracles, as these are

accidental matters. Rather, he is the one who perceives the true reality. Hence, his knowledge combines theory and practice; Here comes the importance of Sufi guidance. to achieve one's harmony and balance; Accordingly, Sufism is not related to a specific sect in society, but rather it is innate in the human soul. Hence, Sufism is nothing but human life itself; Therefore, the communities need it; It was also associated with psychology, through the harmony and compatibility of the Sufi person with reality. Hence, Mysticism played a role in treating some of the afflictions of the soul, such as laziness, inaction, vanity, selfishness, greed... and other afflictions; By leading oneself; With the correct knowledge of things, we can face this, and this is what the spiritual teachings of Sufism aimed at improving the individual's awareness and feeling at peace.

Keywords: Mysticism, Treatment, Idries Shah, Teaching Stories, Sufi Knowledge, Practice, Psychiatry, Sufi Teaching, The Sufi guide, Spiritual Medicine, Sufi Education, Sufi Psychology, Prior Knowledge, Sufi Way.

مقدمة:

ترجع أسباب اختيارنا لموضوع التصوف بوصفه وسيلة علاجية إصلاحية عند المفكر الصوفي الأفغاني المعاصر "إدريس شاه" (1924- 1996م)؛ إلى أهميته في معالجة بعض مشكلات العالم المعاصر، وتعريف الغرب على الثقافة الروحية الإسلامية، وما ذخرت به من معانٍ سامية ورقي فكري تجلى في الأدب الصوفي؛ فقد تأثر بالسابقين عليه من متصوفة المسلمين المشارقة؛ وذلك عن طريق دراسته آدابهم، أمثال: رابعة العدوية، وجلال الدين الرومي، وسعدي الشيرازي، ... وغيرها من الأعلام التي كانت لها مكانة بارزة في تاريخ التصوف الإسلامي؛ فقد كانت مؤلفاته بمنزلة جسرٍ يصل بين ثقافتي الشرق والغرب، والتي تبلغ حوالي ستة وعشرون كتابا نشرت باللغات الأوروبية، وبعض اللغات الشرقية، ومنها: كتاب "الصوفيون" The Sufs، وكتاب "طريقة الصوفي" The Way of the Sufi، وكتاب "تعلم كيفية التعلم" Learning How to Learn، ... وغيرها من المؤلفات.

وقد جاءت أهمية هذه الدراسة في الكشف عن أفكار جديدة للصوفية، أوضحها لنا إدريس شاه؛، فلم نجد دراسات عربية كتبت عنه، على الرغم من أنه حظى على مكانة كبيرة في العالم الغربي؛ ولكنه لم يلق الشهرة اللازمة التي كان يجب أن ينالها في الفكر

العربي؛ ومن ثم يعد هذا البحث من أولى الدراسات الفلسفية الصوفية العربية التي تهدف إلى إلقاء الضوء على فكره الصوفي.

والإشكالية التي انطلق منها هذا البحث تتمحور حول الكيفية التي تناول بها إدريس شاه الفكر الصوفي، وكيف كان وسيلة علاجية إصلاحية؟ وكانت هناك عدة من التساؤلات نابعة من موضوع دراستنا، وقد حاولنا الإجابة عنها عن طريق هذا البحث، والتي يمكن عرضها على النحو الآتي:

س1- إلى أي مدى شغل المفكر الصوفي إدريس شاه اهتمام الباحثين، وما أهم السمات التي امتاز بها فكره؟

س2- هل يطلق لفظ الصوفي على كل من اهتم بمجال التصوف، ما حقيقة التصوف، وكيف ارتبط بالعلاج عند إدريس شاه؟

س3- هل اقتصرت المعرفة الصوفية عند إدريس شاه على الجانب النظري من دون الممارسة، وهل اعتمد الصوفيين على ممارسات السحر والشعوذة، وإلى أي مدى ارتبطت المعرفة الصوفية بالمجتمع الإنساني؟

س4- هل يعد التصوف علما عند إدريس شاه، وكيف تساعد التعاليم الصوفية في تطوير الإنسانية؟

س5- إلى أي مدى كانت حاجتنا إلى التصوف في واقعنا المعاصر عند إدريس شاه؟

س6- ما الجوانب النفسية في دراستنا للتصوف عند إدريس شاه؟

س7- ما الدور الذي تقوم به التربية الصوفية في معالجة آفات النفس عند إدريس شاه؟

وقد استخدمت في هذا البحث المنهجين: التحليلي والنقدي، اللذين يظهران عن طريق عرضنا أفكار إدريس شاه في كتاباته العديدة المتعلقة بحقيقة التصوف بوصفه وسيلة علاجية، والعمل على تحليلها، وبيان آرائه في هذا الصدد عن طريق رؤيته الجديدة للصوفية.

واشتمل هذا البحث على مقدمة، وسبعة محاور رئيسة، وخاتمة، وأهم التوصيات، بالإضافة إلى ثبت المصادر والمراجع، أما المقدمة أوضحت فيها التعريف بهذا البحث، وأهميته، والدوافع أو الأسباب وراء اختياره، والإشكالية التي انطلقت منها، وأهم التساؤلات، والمنهج المستخدم، وكانت عناصر هذا البحث على النحو الآتي:

أولاً- إدريس شاه: مكانته، وأهم ملامح فكره الصوفي:

(1) مكانة إدريس شاه في الفكر الصوفي.

(2) ملامح فكره الصوفي.

(3) أهم آثاره ومؤلفاته الصوفية.

ثانيا- العلاقة بين التصوف والعلاج.

ثالثاً- المعرفة الصوفية بين النظرية والممارسة:

(1) طبيعة المعرفة الصوفية.

(2) المعرفة الصوفية بوصفها ممارسة روحية.

(3) التصوف المصدر الرئيس للفنون والعلوم.

(4) علاقة المعرفة الصوفية بالمجتمع الإنساني.

رابعا- أهمية التعليم أو الإرشاد الصوفي في تطوير الإنسانية:

(1) المتطلبات الأساسية لدراسة التصوف.

(2) دور المعلم أو المرشد الصوفي.

(3) أوجه التشابه بين طريقة الصوفية وطريقة الإسلام.

(4) الصعوبات التي تواجه التعليم أو الإرشاد الصوفي.

خامسا- حاجة المجتمع المعاصر إلى التصوف.

سادسا- الجوانب النفسية عند الصوفية:

(1) أهمية دراسة علم النفس لدى الصوفية.

(2) القصص التعليمية تصحيحا للحالات النفسية.

(3) دور الملاحظة أو الانتباه عند الصوفية.

(4) إسهامات الصوفيين الشرقيين في مجال علم النفس.

سابعا– دور التربية الصوفية في علاج بعض آفات النفس:

(1) أهداف التربية الصوفية.

(2) دور التصوف في معالجة بعض آفات النفس.

ثامنا– نتائج البحث التي توصلت إليها عن طريق الإجابة عن التساؤلات المطروحة في المقدمة.

تاسعا– توصيات البحث.

أولًا- إدريس شاه: مكانته، وأهم ملامح فكره الصوفيّ.

لقد كان من الأهمية أولا التعريف بإدريس شاه؛ ذلك عن طريق معرفة دوره في الفكر الصوفي ومكانته، والمؤثرات التي أثرت فيه، وأهم سمات فكره، وملامحه؛ حتى يمكن لنا فهم كيف كان التصوف عنده وسيلة علاجية إصلاحية لبعض مشكلات العالم المعاصر.

(1) مكانة إدريس شاه في الفكر الصوفيّ.

يعد إدريس شاه مفكرا صوفيا أفغانيا معاصرا، حظى بشهرة كبيرة في الغرب، ولد عام 1924 م، وكان والده السردار إقبال علي شاه، الذي كان عالما وسياسيا، وله مؤلفات كثيرة، وقد عمل إدريس شاه منذ الستينيات مديرا للدراسات في معهد البحث الثقافي في إنجلترا، وتوفي عام 1996م[1].

ولقد امتاز بعمق ثقافته التي تكونت؛ نتيجة جولاته الكثيرة في بلدان الشرق والغرب؛ وهو ينتمي إلى المدرسة النقشبندية[*] في التصوف؛ فقد غلب على مؤلفاته تأثره بمعاني

---

[1] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ترجمة: سماء زكي المحاسني، بيروت، مؤسسة الوفاء، الطبعة الأولى، 1989م، ص ص 4، 8، "المقدمة".

[*] الطريقة النقشبندية: تنسب إلى مؤسسها بهاء الدين محمد شاه نقشبند (ت: 791هـ)، ولفظ نقشبند أو نقش بندر يعني ربط النقش، والنقش هو انطباع القلب بالذكر وربطه أي: بقاؤه من غير محو، فأساس هذه الطريقة الذكر، ولها مسميات عدة، ومنها: صديقية نسبة إلى أبي بكر الصديق، وطيفورية نسبة إلى أبي يزيد طيفور البسطامي؛ فهي بمنزلة أفضل طرق الصوفية للمريد الذي يطمع في الوصول، وظهرت هذه الطريقة وانتشرت في أول الأمر بين المتحدثين باللغة الفارسية، وتعرف هذه الطريقة بأنها دوام العبودية لله تعالى ظاهرا، وباطنا، وبكمال الالتزام بالسنة، واجتناب

الحياة الصوفية، وما يتخللها من إشراق روحي وسعادة نفسية؛ إذا قدم شرحا للفكر الصوفي عن طريق مؤلفاته الكثيرة باللغة الإنجليزية؛ مما أتاح للغرب التعرف على الفكر الإسلامي عامة، ولاسيما الصوفي؛ فدرست كتبه في الجامعات العالمية في أقسام الدراسات الشرقية والفلسفية[1] ؛ فقد عمل على إعادة تصور التصوف للجمهور الغربي بوصفه شكلًا من أشكال الحكمة وعلم النفس، مما أثر بشكل واضح في الروائية الحائزة على جائزة نوبل "دوريس ليسينغ[*] Lessing Doris[2]؛ ولذلك نرى أنه كان له دورا في إبراز مكانة التصوف الإسلامي لدى الباحثين في الغرب.

(2) ملامح فكره الصوفيّ.

يعد إدريس شاه المصادر التي اعتمد عليها من التراث الصوفي ذات قيمة كبيرة في حفظ الحقائق؛ ولكن يبقى أمامنا أن نوزان قيمة هذا النشاط الصوفي في المجتمع

البدعة سواء في العبادات أو العادات أو المعاملات، ولها أصلان، وهما: اتباع النبي "صلى الله عليه وسلم"، ومحبة الشيخ الكامل، وتتحصر طرق الوصول في النقشبندية في أربعة: أولها- صحبة الشيخ الكامل، وثانيها- الرابطة أي الارتباط بالشيخ، وربط قلب السالك بقلبه وتعلقه به، ثالثها- الالتزام أي: يلزم السالك نفسه بما يتلقنه عن الشيخ، رابعها- الذكر، أي: يكون حال السالك هو حال الذاكر لله على الدوام، فيتطهر قلبه عن المنهيات والهوى. (انظر: عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، القاهرة، دار الرشاد، الطبعة الأولى، 1992م، ص ص 393-395، مادة- النقشبندية).

[1] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص ص 8، 9، (المقدمة).

[*] دوريس ليسينيج Doris Lessing: (1919- 2013م) روائية بريطانية، تلقت تعليمها في روديسيا "زيمبابوي حاليا"، وفيها قامت بإعداد مؤلفاتها، وأصبحت شيوعية ونسوية، وكتبت الروايات والقصص القصيرة بأسلوب يتسم بالسهولة، يعبر عن اشتراكيتها واهتمامها بعلم النفس الأنثوي Feminine Psychology، كما أنها كانت غزيرة الإنتاج للخيال العلمي، والقصص القصيرة، والمسرحيات، والمقالات، وحازت على جائزة نوبل للآداب عام 2007م.

-(CP: Jones, Barry. (2013). Dictionary of World Biography. Australian National University E Press. Australia, P. 500).

[2] Hill, Joseph. (2019). "Sufism between Past and Modernity". in: Woodward, M. & Bull, R. Lukens. (Eds). Handbook of Contemporary Islam and Muslim. Springer Nature. Switzerland. P.19.

الإنساني، وبهذه الطريقة نستطيع أن نحتفظ بالمكاسب التي عند الصوفية، ونقلل من السلبيات[1]؛ فقد عمل على ربط ا لأفكار الصوفية بالمجتمع المعاصر، معتمدا في ذلك على التراث الصوفي الأصيل.

وذلك ما يتضح لنا عن طريق كتاباته؛ فقد كان أحد مصادره الرئيسة التي اعتمد عليها يتمثل في آدب العالم الإسلامي؛ لإعادة سرد عدد لا يحصى من القصص والحكايات، التي قد أثرت في الشعوب الغربية تأثيرا واضحا، وأسعدت قُرَّاءه، كما نجد أن شروحاته للحكايات القديمة أعطتها معنى جديدا؛ وقد كان أول تعامل لإدريس شاه مع الصوفية، في كتابه "السحر الشرقي" Oriental Magic عام 1956م، الذي أوضح فيه أن الصوفيين محافظون على طقوسهم وعبادتهم[2]؛ وقد استخدام اللغة والمفاهيم نفسها المستخدمة في التصوف بمعناه المعروف؛ كما ارتبطت مفاهيمه للتصوف بعلم النفس، والأنثربولوجيا، والأديان[*]؛ إذ إنه ساعد على هذا الالتقاء[3].

ولذلك لم يكن إدريس شاه فقط معيدا للقصص الكلاسيكية؛ إذ إن فهمه للصوفية كان مرتبطًا في كثير من الجوانب بعلم النفس؛ فقد أوضح كل ما هو ضروري للناس لفهم الصوفية ورؤاها النفسية؛ وذلك ما نجده بوضوح في عنوان كتابه: "تعلم كيفية التعلم: علم النفس والروحانية في الطريقة الصوفية" Learning How to Learn "Psychology and Spirituality in the Sufi Way"، الذي صدر عام 1978م، فضلاً عن أن أساليب التفكير كانت تمثل موضوعا رئيسا في كتاباته، وهي أيضا محور فيلم وثائقي تليفزيوني مدته أربعون دقيقة أخرجه في عام 1970م، على قناة BBC، ويبدأ الفيلم الوثائقي بالقول: "الإنسان نائم"، ويتسأل: هل يجب أن يموت الإنسان قبل أن

---

(1) إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 51.

(2) Sedgwick, Mark. (2017). Western Sufism "From the Abbasids to the New Age". Oxford University Press. New York, PP. 209, 212.

(*) وذلك ما سوف يتضح لنا في أثناء تناولنا هذا البحث.

(3) Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn "Psychology and Spirituality in the Sufi Way". Published by: Penguin Group. England, (Doris Lessing: Introduction), P.7.

يستيقظ؟، ورأى أن العيش في عالم خاطئ هو أمر عديم الجدوى، وأن الإنسان يحتاج إلى تطوير وعيه وتحسينه[1].

وقد نشر الكثير من الحكايات والروايات، معظمها من الشرق الأوسط، وغالبا ما تظهر هذه المواقف نقاط القوة والضعف لدى الشعوب، والسؤال: لماذا استمد هذه المو اقف من ثقافات الشرق، وما تأثيرها في العالم الغربي إذ لم تكن مجرد ترويج أو نشر للحكمة الشرقية؟ نجد أن هذه الأفكار تطورت بشكل جيد بوصفها وسيلة تعليمية في الشرق، كما أن التأثير الذي أحدثته كتاباته في العالم الغربي، يتضح عن طريق أنها حظت على اهتمام الباحثين في الغرب على نطاق واسع؛ فقد كتبوا عنها، وعدوها بأنها مثمرة، وحينما ننتقل إلى السؤال عن القيمة لهذه الحكايات والقصص، والنكات والسرد؛ ذلك من أجل تفنيد مزاعم البعض التي ترى أنها ذات قيمة ترفيهية فقط، ولا يجب أن نفترض أنها مخصصة فقط للغرب؛ وذلك لأنها حققت أيضا نجاحا هائلاً في الشرق[2].

وهكذا نشأ فكره الصوفي عن طريق اطلاعاته الكثيرة في الشرق والغرب، ودراسته لتراث العالم الإسلامي، ولاسيما الصوفي أمثال: رابعة العدوية، والغزالي، وجلال الدين الرومي، وسعدي الشيرازي، وفريد الدين العطار... وغيرها من الأعلام التي كانت لها مكانة بارزة في تاريخ التصوف الإسلامي، وقد ربط بين هذا التراث الصوفي الهائل وبين المجتمع الإنساني، وذلك ما سوف يتضح لنا أثناء تناولنا هذا البحث.

كما قدم الكثير من الكتب، مختلفة الأوجه لما يجب أن تكون عليه الصوفية، فقام بإعادة إصدار الكلاسيكيات، أي: المصادر القديمة إلى المحاضرات الجامعية

---

(1) Sedgwick, Mark. (2017). Western Sufism “From the Abbasids to the New Age”. PP. 214, 215

(2) Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn “Psychology and Spirituality in the Sufi Way”. PP. 101- 102.

المطبوعة؛ فكتب كتبه بتنسيق جديد؛ وذلك أَمر جدير بالاعتبار؛ إذ إننا نواجه في عصرنا أكبر التحديات من: الطبيعة البشرية نفسها، وكيفية فهم سلوكنا وثقافتنا[1].

وقد ارتبطت كتاباته بالكثير من التصورات والشخصيات الصوفية، فعلى سبيل المثال: حينما يتحدث عن: جلال الدين الرومي (ت: 672هـ)، يشير إلى موقفه الراقي من المرأة بوصفها شعاعا سماويا[*]، وهذا ما أدهش الباحثين الغربيين الذين وجدوا أن هذا الموقف يتعارض تماما مع التقاليد الشرقية التي تصف المرأة بأنها وسيلة من وسائل اللهو، وهذا ما يدل على أن الصوفيين الشرقيين أحدثوا نقلة مهمة فيما يتعلق بالحضور الأنثوي للمرأة، وحينما يتحدث عن: أزمة الغزالي (ت: 505هـ) الروحية، وكتابه حول فضائح الباطنية، يحاول أن يفسر المسألة تفسيرا سيكولوجيا، وفي سياق آخر يوضح الدور المهم الذي قا م به الغزالي للتوفيق بين التصوف والفقه عن طريق كتابه "إحياء علوم الدين"[**]، إلا أنه لم يشر إلى أن هذه المحاولة تمثل ذروة

---

[1] Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn "Psychology and Spirituality in the Sufi Way". P.7.

[*] فقد ناقش جلال الدين الرومي في أشعاره وأقواله ونصائحه موضوعات عدة، ومنها: مكانة المرأة السامية، والمساواة، والعدالة، والابتعاد عن الظلم والاضطهاد؛ ومن ثم تعددت الموضوعات الاجتماعية التي عالجها عن طريق شعره. (انظر: مصطفى غالب، جلال الدين الرومي، بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، 1982م، ص ص 43، 44).

ومن أقواله عن المرأة: "قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: إن النساء يغلبن العاقلين تماما وأصحاب القلوب. ثم إن الجهال يغلبون النساء؛ ذلك لأنهم شديدو الحدة، ويسيرون على العشواء. وقليلًا ما يكون عندهم لطف أو رقة أو وداد؛ ذلك لأن الحيوانية غالبة على أصولهم. فالحنان والرقة من صفات الإنسان، والغضب والشهوة من صفات الحيوان...". (انظر: مولانا جلال الدين الرومي، مثنوى، الكتاب الأول، ترجمه وشرحه وقدم له: إبراهيم الدسوقي شتا، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1996م، ص 232، الأبيات: 2445).

[**] قد أبرز الغزالي العلاقة بين الفقه والتصوف؛ فعلوم المعاملة التي يتقرب بها إلى الله تعالى تنقسم إلى ظاهرة وباطنة، والظاهرة قسمان، معاملة بين العبد والحق –تعالى–، ومعاملة بين العبد وبين الخلق، أما الباطنية أيضا قسمان، ما يجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة، وما يجب

النضج[***] بعد عدة من المحاولات التي ظهرت في أواخر القرن الثالث الهجري على يد السراج الطوسي[*] (ت: 378هـ)، والقشيري[**] (ت: 465هـ)، وحينما يتحدث عن

تحلية القلب به من الصفات المحمودة؛ وذلك ما يتضح لنا في كتابه إحياء علوم الدين الذي قسمه إلى أربعة أقسام؛ إذا يقول: "... قد أسسته على أربعة أرباع، وهي: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات..." (انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، (د.ت)، ص ص 3، 4).

[***] يدعو علم الشريعة إلى الأعمال الظاهرة والباطنة؛ لأن العلم متى ما كان في القلب فهو باطن، وإذا جرى على اللسان؛ فهو ظاهر، والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة أي: الأعضاء سواء أكان في العبادات أم كان في الأحكام، والعبادات مثل: الطهارة والصلاة والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، وغير ذلك، أما الأحكام مثل: الحدود، والطلاق، والعتاق، والبيوع، والفرائض، والقصاص ... وغيرها، والأعمال الباطنة هي أعمال القلوب كالمقامات والأحوال مثل: التصديق، والإيمان، واليقين، والأخلاص، والمحبة، والرضا، والتقوى... وغيرها (انظر: أبي نصر السراج الطوسي، اللمع، حققه وقدم له وخرج أحاديثه: عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، القاهرة، بغداد، دار الكتب الحديثة، ومكتبة المثنى، 1960م، ص ص 43، 44).

[*] أوضح السراج الطوسي في كتابه "اللمع" العلاقة بين التصوف والفقه، إذا يقول: "... إن طبقات الـ صوفية أيضا اتفقوا مع الفقهاء وأصحاب الحديث في معتقداتهم وقبلوا علومهم، ولم يخالفوهم في معانيهم ورسومهم، إذا كان ذلك مجانبا للبدع واتباع الهوى، ومنوطًا بالأسوة والاقتداء، وشاركوهم بالقبول، والموافقة في جميع علومهم..."(انظر: المصدر السابق، ص28).

[**] نجد العلاقة بين الفقه والتصوف عند القشيري، إذ يقول: "... فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير مقبول... فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما آمر الله، والحقيقة شهود لما قض وقدر، وأخفى وأظهر..." (انظر: الإمام أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: العارف بالله الإمام عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، القاهرة، مؤسسة دار الشعب، 1989م، ص 168)، فالشريعة هنا تمثل الفقه الذي يتعلق بما هو ظاهر من العبادات، أما الحقيقة تمثل التصوف الذي يتعلق بما هو باطن من الأمور.

قصائد ابن عربي (ت: 638 هـ) الشعرية بطابعها الرمزي، نجده يركز اهتمامه على مسألة اللغة بوصفها ساحات للخيال المفتوح، وليس بوصفها أداة تواصل[1].

وحينما يتحدث عن فريد الدين العطار (ت: 618هـ)، يؤكد أهمية أعماله في تراث الصوفية؛ إذ إنها تساعد الإنسان من معرفة مستويات الأخلاق في الإسلام، والجوانب الاجتماعية[2]، كما أنه حينما يتحدث عن سعدي الشيرازي (ت: 691هـ)، يرى أنه من الصعب أن نحيط بما حققه ذلك الصوفي الكبير، الذي أدهش النقاد في الغرب برائعتيه: البستان The Orchard، وحديقة الورد The Rose Garden، اللذان يعدان من أعظم المؤلفات الفارسية بما فيهما من نثر غني بالمعاني، وشعر جميل لا يضاهى، فيضمان الكثير من الحكم والأمثال والمقتبسات[3].

وهكذا قام إدريس شاه بدور مهم في الفكر الصوفي عن طريق إلقائه الضوء على الجوانب الايجابية في التصوف؛ التي تجعل للتصوف أبعادا كثيرة؛ سواء أكانت اجتماعية على سبيل المثال: تأكيده مكانة المرأة السامية، أم كانت نفسية عن طريق ربطه بين الصوفية وجوانب علم النفس، أم كانت أخلاقية عن طريقه إرشاداته التهذبية والسلوكية.

ولذلك وصف قراء كتبه بعمق الفهم، واتساع المعرفة؛ ذلك لأن كتبه كانت مختلفة من حيث إنها لم تكن مثل الكتب الروحية الأخرى في ذلك الوقت؛ إذ إنها تتسم بوجود البعد النفسي، كما أنها أتاحت للغرب الوصول إلى عالم مجهول لهم أي إلى الفكر العربي، ولاسيما الصوفي، والتعاليم الروحية التي كان الجمهور الغربي يكاد يجهلها تماما، كما أن استخدام شاه لبعض القصص في كتاباته؛ جعلها سهلة القراءة وممتعة، وتساعد الشخص في التعامل مع المواقف الجديدة؛ إذ إنها تجسد الملاحظات والأفكار

---

[1] إدريس شاه، الصوفيون، ترجمة. بيومي قنديل، تقديم. هالة أحمد فؤاد، القاهرة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الثانية، 2015م، ص ص 14، 15 (المقدمة).

[2] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 90.

[3] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص ص 113، 114.

المكتسبة والمتوارثة عبر القرون؛ فقد شكلت كتبه مجموعة متماسكة، وحينما يتم قراءتها وإعادة قراءتها تكشف عن معنى جديد، وتعمل على تنمية الوعي لدى الأفراد؛ فتظهر أنماط من التفكير، وطرق مختلفة لرؤية العالم[1].

وهكذا بعد أن أوضحنا مكانة إدريس شاه في الفكر الصوفي، الذي كان موضع اهتمام الباحثين في الغرب؛ فقد درست كتبه في الجامعات العالمية؛ وذلك ما يؤكد لنا أهميته البارزة، وكما عرضنا سمات فكره الصوفي التي تتضح عن طريق مؤلفاته العديدة، سوف ننتقل إلى عرض بعض هذه المؤلفات.

(3) أهم آثاره ومؤلفاته الصوفية:

لقد كانت غالبية كتبه بعد كتابه "الصوفيون" تستند إلى سلسلة من الأسئلة والأجوبة، وبعض القصص التي يستعين بها، والتي بلغت عددها حوالي ستة وعشرون كتابا[2]، وسوف نذكر بعضها في إيجاز على النحو الآتي:

1- كتاب "الصوفيون" The Sufis: الذي صدر عام 1964م؛ من أجل تقديم الطريقة الصوفية[*] بأشكال جديدة تناسب الاحتياجات الحديثة؛ لأن التصوف ليس دراسة للماضي أو تبجيل أولياء القرون الوسطى وتقديسهم، بل إنه كان -ودائما- تطوريا في الروح والعمل[3] ، ويتصف هذا الكتاب بالطابع المعلوماتي الموسوعي، فقد قدم لنا فيه رؤية شاملة ثرية متنوعة حول تجليات التجربة الصوفية في الشرق والغرب، والتبادلات الشائكة بين التصوف الإسلامي والحضارة الغربية منذ العصور الوسطى

---

(1) Sedgwick, Mark. (2017). Western Sufism “From the Abbasids to the New Age”. PP. 216- 217

(2) Ibid, P.214.

(*) الطريقة الصوفية: هي طريق الصوفيون، أي: طريق السلوك إلى الله، ولهذه الطريقة ظاهر وباطن؛ فظاهرها يتمثل في إصلاح الجوارح، وباطنها ما يتعلق بإصلاح العوالم الباطنية، وأول شروطها تخلية القلب بالكلية عما سوى الله، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية في ذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله. (انظر: رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، 1999م، ص ص 574، 577، مادة- الطريق، طريق الصوفية).

(3) Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn “Psychology and Spirituality in the Sufi Way”. P.7.

حتى القرن العشرين، بالإضافة إلى دفاعه عن الهوية الشرقية ثم الإسلامية بإزاء الآخر الغربي ومنجزه الحضاري؛ وذلك عن طريق صياغاته التي تصف التصوف بأنه فكر شرقي، وصل إلى أرقى وأكمل تجلياته داخل الفضاء الإسلامي، كما قدم لنا نصا من داخل النسق الصوفي وليس من خارجه[1].

2- "طريقة الصوفي" The Way of the Sufi: الذي يعد كتابا جديدا من نوعه، فلا يشتمل على دراسات جامدة للنظريات الصوفية، بل كان شرحا لنظرة الصوفية للحياة؛ وذلك عن طريق المنابع الأصيلة للفكر الصوفي، كما نلاحظ في هذا الكتاب وغيره من كتبه الأخرى، دعوته إلى المحبة، والإخاء، والأخلاق السامية، والارتفاع فوق الماديات، وفيه تحدث عن المدارس، والطرق الصوفية، وتعاليم المعلمين الصوفيين بوصفها مرتكزات رئيسة للبحث في مبادئ التصوف، وقد جاء هذا الكتاب؛ لإبراز الأفكار والأفعال الصوفية وفق صلتها بالمجتمع الحالي، أو ما يسمى العالم المعاصر[2].

3- "حكايات الدراويش" Tales of the Dervishes، الذي صدر عام 1993م في نيويورك بدار بنجوين Penguin، وهو عبارة عن قصص تعليمية للصوفيين على مدى آلاف سنة ماضية[3].

وهكذا يتضح لنا أهمية دراستنا للمفكر الصوفي إدريس شاه؛ فقد ترك لنا أعمالاً متنوعة ثرية حول التصوف؛ إذا امتازت أعماله بالجدة، فقد طرحت موضوعات الصوفية بشكل جديد تتلاءم مع احتياجات عالمنا المعاصر، وبعد أن أوضحنا مكانته، وأهم ملامح فكره الصوفي، ننتقل هنا إلى معرفة حقيقة التصوف في فكره، فهل يمكن أن يعد التصوف علاجا؟.

ثانيًا- العلاقة بين التصوف والعلاج[*].

---

[1] إدريس شاه، الصوفيون، ص ص 8، 11، 12، (المقدمة).

[2] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 10، (المقدمة)، ص18.

[3] Munro, M. (2021). "The Mountain Path: on a Lesson of Fred Moten`s". in: The Map and the Territory. Published by: Punctum Books. Jstor. P. 37.

وقبل أن نتناول العلاقة بين التصوف والعلاج عند إدريس شاه، نتساءل: هل يطلق الصوفي على كل من اهتم أو بحث في مجال التصوف؟

ذهب إدريس شاه إلى أنه إذ افترض أحد الأشخاص الذي سمع مؤخرا عن الصوفية أو التصوف بعدم وجود جذور للأفكار الصوفية، فهنا يكون لديه ثلاثة خيارات ممكنة لمصدر التصوف، الأول- هو الكتب المرجعية والأعمال التي كتبها أشخاص جعلوا هذا الموضوع عملهم وتخصصهم، والثاني- قد يكون في الهيئات أو المدارس التي تقوم بتعليم أو ممارسة التصوف أو استخدام مصطلحاته، والثالث- قد يكون أفرادا وربما مجموعات من الناس يعرفوا بالصوفيون؛ ولذلك يمكن لهذا الشخص أن يتعامل مع مصطلحات مختلفة، على سبيل المثال: "القادريون"[*] Qadiris، "أهل اليقين"[**] People of Truth، ... وغيرها من المصطلحات؛ ومن ثم فيعتقد أن الكلمة العربية "متصوف" تطلق على كل من سعى إلى أن يكون صوفيا[1].

---

[*] العلاج في اللغة من مادة "علج"، وعالج الشيء معالجة، وعلاجا، أي: زاوله ومارسه. (انظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، 2004م، ص620، مادة علج).

[*] القادرية: إحدى طرق الصوفية التي تنسب إلى مؤسسها عبد القادر الجيلاني (471هـ- 561هـ)، الذي اشتغل بالقرآن، وكان على مذهب ابن حنبل، وله مؤلفات مهمة في التصوف، ومنها: الغنية لطالب طريق الحق، والفتح الرباني، وفتوح الغيب، والفيوضات الربانية، وقد تأثر به الإمام ابن تيمية، ووصف طريقته بأنها الطريقة الشرعية الصحيحة؛ إذ إن التصوف عنده ليس أقوالاً تقال، ولكنه طريقة فيها الجوع وقطع المألوفات. (انظر: عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، ص ص 113، 114، ص 269).

[**] أهل اليقين: هم على ثلاثة أحوال، الأول- الأصاغر، أي: المريدون، وهم العموم الذين يمثلوا أول مقام لليقين، أي: الثقة بما في يد الله -تعالى-، والإياس مما في أيدي الناس، والثاني- الأوساط وهم الخصوص، واليقين لديهم مازالت فيه المعارضات على دوام الأوقات، والثالث- الأكابر، وهم خصوص الخصوص، ويتمثل اليقين عندهم في تحقيق الإثبات لله عزوجل بكل صفاته. (انظر: رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ص 121، مادة- أهل اليقين).

[1] Shah, Idries. (1968). Special Problems in the Study of Sufi Ideas. (Second Edition). Published by: the Society for the Understanding of the Foundation of Ideas. England, P. 5.

ولـذلك يجـب أن تسـتخدم كلمـة الباحـث أو السـالك لأولئـك المهتمـين بـالأمور والممارسات الصوفية؛ إذ لا يمكن تسميتهم "متصوفين"؛ لأن الصوفي هو اسم للإنسان المدرك والمتخصص في دراسة التصوف، ومع ذلك نجد الكثير من يسمون أنفسهم صوفيين[1] ، وهنا يقول إدريس شاه: "... يجب ألا نخلط بين الذين يظنون أنهم من المهتمين بالتصوف أو الذين يعتقدون أنهم من المتصوفين وبين أولئك الذين يمكنهم بالفعل دراسة التصوف والاستفادة منه؛ فالتصوف شيء لا يمكن الحكم عليه عن طريق دراسة قام بها أشخاص يدعون أنهم من أصحابه ..." [2]؛ إذن فينبغي علينا التمييز بين كل من المتصوفين والمهتمين بمجال التصوف أو من يزعمون أنهم صوفيين.

كما يرى أنه على الرغم من صعوبة تعريف التصوف فهو أمر محير؛ فإن هذا الاسم اكتسب أهميته بما يقدمه من آراء متنوعة عن الصوفية ومعانيها المختلفة، ونجد من هذه المعاني ما يعتقده الصوفيون أنه يمثل نوعا من التفكير يمكن أن يؤدي إلى الرقي، وينتج عنه قدرات متميزة تبدو كامنة في الإنسان العادي[3]، وقد أعطى المفسرون معاني عديدة لكلمة الصوفي، إلا أن هناك تفسيرا واحدا ينطوي على مغزى خاص، وهو أن كلمة الصوفي تحتوي على مفهوم الحب؛ ومن ثم تعد الصوفية فلسفة متسامية تهدف إلى التصحيح؛ وهي جاءت إلينا من الماضي، وتكون صالحة للمجتمع المعاصر[4]؛ وذلك عن طريق تحقيق انسجام وتوزان الافراد، والتخلص من المشكلات النفسية المختلفة لديهم.

وهنا نتساءل: هل يعد المتصوف معالجا؟ وكيف ذلك؟

لقد كان العلاج أو الشفاء من الاضطرابات النفسية والجسدية أمرا يمارسه الصوفيون يوميا، بوصفه أساسا من أسس الحب، إلا أنهم لا يقدمون عليه قبل أن يقضوا اثنتي

---

(1) Shah, Idries. (1993). "Sufi Spiritual Rituals and Beliefs". in: Sufi Thought and Action. Assembled by: Idries Shah. The Octagon Press. London, P. 12.

(2) إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 53.

(3) المصدر السابق، ص23.

(4) إدريس شاه، الصوفيون، ص 92.

عشرة سنة على الأقل في مدارسهم الموجودة في البراري، ونجد أن الطبيب الصوفي[*] لا يجوز له أن يفرض إرادته على المريض على عكس ما يفعله معظم الأطباء النفسانيين المحدثين، بل ينبغي للطبيب الصوفي أن يترك للمريض؛ كي يشخص مرضه، ويصف علاجه بنفسه، ثم يعطي الطبيب إرشاداته في سبيل الحيلولة بينه وبين عودة الأعراض نفسها مرة أخرى؛ ذلك لأن العلاج نفسه لابد من أن يأتي من المريض مباشرة، وليس من أسرته، أو الذين يريدون له العافية[1].

فقد كان الغزالي في كل آرائه لم يلعب دور المشخص للمرض فحسب، بل إنه امتاز بأسلوب واضح في ذلك؛ فإنه حصل على معرفته بطريقة صوفية؛ إذا يرى أن المعرفة هي أرقى أشكال التفكير الإنساني، بالإضافة إلى القدرة على الاحتفاظ بالمعلومات، ونقلها للآخرين، ولذلك يذهب إدريس شاه إلى أن طريقة الغزالي في الحياة تتمثل في أن الإنسان لا يكون إنسانا إلا إذا ترك الأنانية، والشهوة، وحدة الطبع، والتهجم على الآخرين، ويجب على التلميذ أن ينظر إلى معلمه بوصفه طبيب يعرف السبيل إلى معالجة المريض[2].

وهنا نتساءل: ما الفرق بين الطب الصوفي والطب النفسي؟

يعد الطب الصوفي أو الروحاني من اصطلاحات فلاسفة الصوفية، وهو يمثل العلم بكمالات القلوب، وآفاقها وأمراضها، وأدوائها، وبكيفية حفظ صحتها واعتدالها؛ ومن ثم يعد الطبيب الروحاني هو طبيب القلوب أو الشيخ العارف، أما الطب النفسي فهو يختص بالأمراض العقلية والنفسية؛ ومن ثم يكون الطبيب النفسي هو المتخصص بعلاج هذه الأمراض[3].

---

[*] الطبيب الصوفي أو الروحاني: هو الشيخ العارف، القادر على الإرشاد. (انظر: رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ص 572، مادة- الطبيب الروحاني).

[1] إدريس شاه، الصوفيون، ص 31، (تصدير: روبرت ديفز).

[2] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص ص 77، 78.

[3] عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة، مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة، 2000م، ص490.

إذا تقدم الصوفية طريقة لعلاج الاضطرابات النفسية التي يعاني منها الإنسان، وتحديدا عن طريق العلاج الصوفي، ولا يقصد هنا تغيير الموقف أو استبدال المكان الذي يحتله الطب؛ إذ إن طريقة العلاج الصوفي لها وظيفة مكملة؛ فقد كانت التقاليد العلاجية في العلم الصوفي فريدة من نوعها، وقد تمت ممارستها منذ قرون، ولا تهدف هذه التقاليد إلى تغيير أنماط العلاج النفسي والعلاج الطبي بالعلاج الروحي[1].

ويذكر إدريس شاه إلى أن العلاج النفسي المعاصر يحاول معالجة بعض الحالات؛ وذلك عن طريق إرشاد العقل إلى نمط سوي وفق المبدأ النفسي، أما الصوفي فأنه يرجع الحالات التي تحتاج إلى علاج إلى حالة ذهنية تفتقر إلى الإنسجام، وتتلمس الطريق نحو التوازن والتطور، ولكن من المستحيل استعادة المرء لتوازنه وحده من دون ما يدفعه إلى الإمام[2]، أي: يحتاج إلى المرشد الذي يوجهه لاستعادة توازنه، وتحقيقه.

ولقد كان هناك تشابه في نظرة الشخص العادي سواء أكان في الشرق أم كان في الغرب إلى الصوفي الشرقي؛ وذلك بوصفه شخصا مزودا بقدرات خارقة، ووارث لأسرار وصلت إليه عن طريق أجيال لا تحصى، ورمزي الحكمة، ويستطيع أن يقرأ أفكارك، كما يعتقد آخرون أن الصوفيين لديهم قدرات خاصة لشفاء المرضى، وهذه الأمور يمكن تفسيرها عن طريق وجود نوع من المعرفة القبلية لديهم، وهذا ما يجعل لديهم من اعتقاد بأنهم يسهمون في تطوير البشرية إلى مراتب أعلى[3].

وهنا يذهب إدريس شاه إلى أن الصعود الروحي أو الشخصية الجذابة التي يحرزها الصوفي لم تمثل هدفاً له، ولكنها تأتي نتاجا عرضيا أو ثانويا؛ لسموه الداخلي، وارتقائه، أي: أن الصوفي لا يعتمد على شهرته في قدرته على الإتيان بالمعجزات والكرامات، أو القيام بأعمال السحر؛ ومن ثم ينظر إلى الصوفي في ضوء ما يقوله وما يفعله فحسب[4].

---

(1) Umam, Hoerul & Suryadi, Lyad. (2019). "Sufism as A Therapy in the Modern Life". International Journal of Nusantara Islam: Vol.7. No.1. P. 37.

(2) إدريس شاه، الصوفيون، ص428.

(3) المصدر السابق، ص 75.

(4) المصدر السابق، ص ص 120، 121.

ويشير إلى رأي ابن عربي الذي يذكر فيه أن الناس يعتقدون بأن الصوفي يجب أن يظهر المعجزات، ولكن الشرط في الصوفي هو أن يمتلك كل ما يحتاجه المريد؛ ومن أجل ذلك، يجب أن يكون المعلم قد تجاوز ما هو ظاهر، وأدرك ما بداخله، أي: ذاته؛ ومن ثم يدرك هذا الوجود؛ ولذلك رأى إدريس شاه أنه يجب على المعلمين الصوفيين أن يتجنبوا إدعاء المعجزات والكرامات؛ ذلك لأن الناس سوف ينجذبون إلى الصوفيين عامة؛ بسبب شغفهم بالعجائب[1]؛ ولذلك تعد المعجزات أو الكرامات بمنزلة أمور عارضة أو ثانوية له، فلا تمثل هدفاً له؛ ومن ثم فالصوفي ذلك الشخص الذي تجاوز إدراكه للأمور الظاهرة إلى إدراكه الأمور الباطنة أو الذاتية.

ولذلك يهدف الصوفي إلى غاية ما ولا يعمل على الانحراف عنها؛ ومن ثم فإن قدراته النفسانية أو العلاجية تأتي من إعمال هدفه الأساسي، فمعرفته بما يفترض أن تكون عليه الإنسانية سليمة هي مصدر قدرته على مساعدة الإنسانية التي يتضح أنها غير سليمة[2].

وهكذا بعد أن تناولنا العلاقة بين التصوف والعلاج، وأوضحنا الفرق بين الصوفيين والا مهتمين بالتصوف؛ فالصوفي ليس الشخص القادر على شفاء المرضى؛ بل إنه الشخص المدرك الذي وصل إلى مرحلة عالية من المعرفة والإدراك؛ تجعله قادرا لإرشاد المريض وتوجيه لتحقيق توازنه؛ ذلك لأن الطبيب الصوفي ليس كالطبيب النفساني، وهنا نتساءل: كيف يحصل الصوفي على معرفته؟ وهل تقتصر على ماهو نظري، أي دراسة الأفكار والنظريات التي تحصل عن طريق الكتب، أم تعتمد على الممارسات والتجارب؟، وما نوع هذه الممارسات؟ وهل توصف هذه الممارسات بأنها نوع من السحر أو الشعوذة؟.

ثالثًا- المعرفة الصوفية بين النظرية والممارسة.

(1) طبيعة المعرفة الصوفية:

---

[1] Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn "Psychology and Spirituality in the Sufi Way". P.P. 54- 55.

[2] إدريس شاه، الصوفيون، ص 511.

قد أوضح إدريس شاه وجود ثلاثة أنواع للمعرفة لدى الإنسان، الأول- المعرفة الاعتيادية أو المألوفة، والثاني- المعرفة الروحية الفريدة من نوعها غير المألوفة، وغالبا ما يطلق عليها اسم "النشوة" أو الانجذاب الصوفي، والثالث- هو معرفة الواقع الحقيقي، الذي يعد أهم هذه الأنواع، ويكمن وراء النوعين السابقين؛ إذ إن المعرفة الروحية تحمل معها معرفة الواقع الحقيقي؛ ولذلك فالنوعين الآخران هما انعكاس للثالث؛ إذ إنهما يكونوا بلا قيمة من دونه(1).

وفي هذا الصدد أشار إلى مثال يؤكد على ذلك؛ إذ إننا يمكن تخيل سائق العربة الذي يجلس في عربة يدفعها حصان ويقودها السائق بنفسه، نجد أن الفكر يمثل العربة، الذي يعد الشكل الخارجي، وهو عن طريقه نفكر ماذا علينا أن نفعل، كما أن العربة تمكن الحصان والرجل من العمل، أما الحصان يمثل القوة المحركة، وهو الطاقة التي تسمى بـ "العاطفة"، الذي يعد ضروري لدفع العربة، أما الرجل يتميز بقدرته على الإدراك، كما أنه يجعل العربة تتحرك نحو هدفها وتحققه؛ فهو من تلقاء ذاته يكون قادرا على أداء الوظائف بشكل صحيح، ولكن الوظيفة المركبة التي نسميها حركة العربة لا يمكن أن تحدث ما لم يتم اتصال الثلاثة بالطريقة الصحيحة، ونجد أن الرجل وحده يمثل "الذات الحقيقية" الذي يعرف علاقة العناصر الثلاثة وحاجتها إلى بعضها البعض؛ ولذلك يتمثل هدف الصوفيين في الجمع بين الثلاثة أنواع للمعرفة(2).

وهنا شبه إدريس شاه الأنواع الثلاثة للمعرفة بالعربة التي يدفعها الحصان، والسائق الذي يقودها؛ فمعرفة الإنسان لا تكتمل من دون الأنواع الثلاثة: المعرفة الاعتيادية، والمعرفة الروحية، ومعرفة الواقع الحقيقي، كما أن حركة العربة لا تتم من دون اتصال العناصر الثلاثة : العربة، والحصان، والسائق، ونجد أيضا في العربة السائق هو الذي

---

(1) Shah, Idries. (1969). Tales of the Dervishes "Teaching- Stories of the Sufi Masters over the Past Thousand Years". E. P. Dutton & Co., Inc. New York, P. 207.

(2) Ibid, P. 207.

يستطيع أداء الوظائف بشكل صحيح، فمعرفة الواقع الحقيقي يكمن وراء النوعين الآخرين، كما أن المعرفة الروحية لا يمكن أن تنفصل عن معرفة الواقع الحقيقي.

ولذلك يذهب إدريس شاه إلى أن المعرفة الصوفية تتجاوز معرفة التصورات البشرية المعتادة أو المألوفة[1]، فلا يستطيع أحد أن يبحر في أغوار الصوفية من الخارج؛ لأن الصوفية تتضمن تمارين وتجريب ومشاركة، وعلى الرغم من تعدد كتب الصوفية؛ فإنها تتناقض بعضها مع الأخر، فلن يصل أحد إلى معانيها إلا إذا كان مطلعا على بواطن الأمور، وذلك ما لاحظه الكثير من الدارسين في محاولتهم فهم الصوفية، فعلى سبيل المثال: نجد البروفيسور نيكلسون (ت: 1945م)، الذي رأى صعوبة الوصول إلى جوهر الصوفية عن طريق آدابها الشرقية[2].

وهنا يتساءل: لماذا لا يمكن إعطاء الناس الحقائق الكاملة وقوة المعرفة التي لدى الصوفيين؟ نجده هنا يستشهد بكلام مفكر من القرن الحادي عشر الميلادي، وهو ابن حزم الظاهري[*] (ت: 456 هـ) الذي يعد وفق تقدير العلماء الغربيين، "مؤسس علم مقارنة الأديان"، إذ يذكر أن: "العلوم المبهمة أو الغامضة مثل الأدوية القوية، التي تشفي الأجسام القوية، وتقتل الكائنات الحية الضعيفة، وبالمثل تعمل العلوم المبهمة على تحسين العقلية التي يمكنها فهم أوجه العقبات وتحسينها، كما أنها تقتل الفهم الضعيف لدى بعض الناس"[3]؛ ولذلك فعلى الرغم من صعوبة المعرفة الصوفية؛ ذلك

---

[1] Shah, Idries. (2000). A Perfumed Scorpion. The Octagon Press. London, P. 32.

[2] إدريس شاه، الصوفيون، ص ص 76، 77.

[*] يقول ابن حزم: "... العلوم الغامضة كالدواء القوي، يصلح الأجسام القوية، ويهلك الأجسام الضعيفة، وكذلك العلوم الغامضة، تزين العقل القوي...". (انظر: ابن حزم الأندلسي "أبي محمد علي بن أحمد"، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، قرأه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه. طارق بن عبد الواحد بن علي، الإسكندرية، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، 1438هـ، ص 29).

[3] Shah, Idries. (1992). Seeker After Truth, “From Jales, Discussions and Teachings, Letters and Lectures. the Octagon Press. London, P.35.

لأنها تتجاوز معرفة الإنسان العادي؛ فإنها تمتاز بسموها وارتقائها؛ فهي تعمل على تحسين وعي الفرد للوصول إلى الحقائق.

ولذلك يذهب إلى أن المعرفة الإلهية عند الغزالي عميقة جدا، فلا يعرفها تمام المعرفة إلا أولئك الذين يمتلكونها؛ إذ إن الطفل لا يعرف ما حققه الكبير، وكذلك الإنسان العادي لا يمكن أن يتفهم ما وصل إليه العلماء، ولذلك لا يمكن للمثقف العادي فهم رياضة الأولياء أو المتصوفين[1].

وكما يرى أن مفهوم الثقافة بالنسبة إلى الصوفي مختلف عن مفهومها بالنسبة إلى الإنسان العادي؛ ذلك لأن تفكيره محدود، وهنا يشير إلى السراج الطوسي[**]، فهناك أشكال ثلاثة للثقافة، الثقافة الدنيوية التي تنحصر في الحصول على المعلومات والأفكار، والتي تعرف بالعلم التقليدي، والثقافة الدينية وهي تتسم بالتكرار، وتتبع القواعد، والمبادئ الأخلاقية، أما الثقافة الصوفية التي تتصف بالتأمل والتركيز، وتطوير الذات، وغرس للتجربة الباطنية[2].

وهكذا فكما تختلف معرفة الصوفي الروحية عن معرفة الإنسان العادي للأمور المألوفة؛ تختلف أيضا ثقافة الصوفي التي تهدف إلى تنمية الذات وتطويرها عن ثقافة الإنسان العادي؛ التي تنحصر في الحصول على المعلومات والأفكار، وهنا نتساءل: هل توصف المعرفة الصوفية بأنها مجرد خبرة نظرية أم أنها ممارسة؟

(2) المعرفة الصوفية بوصفها ممارسة روحية:

---

[1] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص80.

[**] يقسم السراج الطوسي في كتابه اللمع الناس في الأدب إلى ثلاث طبقات: أهل الدنيا، وأهل الدين، وأهل الخصوصية من أهل الدين، ونجد أن أهل الدنيا أكثر آدابهم في الفصاحة، والبلاغة، وحفظ العلوم، وأسماء الملوك، وأشعار العرب، أما أهل الدين فأن أكثر آدابهم في رياضة النفوس، وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود، وترك الشهوات، واجتناب الشبهات، وتجريد الطاعات والمسارعة في الخيرات، أما أدب أهل الخصوصية من أهل الدين يتمثل في طهارة القلوب، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب في مواقف الطلب، ومقامات القرب. (انظر: أبي نصر السراج الطوسي، اللمع، ص ص 195، 196).

[2] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 312.

نجد أنه من الأمور الواضحة التي يواجهها أي شخص في دراسته للأفكار الصوفية، وجود نظريات باستمرار ليس لها برهان أو تأكيد، قدمت بوصفها حقائق، وبما أن الأفكار الصوفية تنتقل إما بالرمز، وإما بالإشارة، وإما بالدليل الواضح، وحينما تفتقر إلى ذلك؛ من ثم نعتمد على الكتب فقط، وبذلك نكون خاضعين لتلك الآراء الذاتية التي تفتقر إلى الموضوعية[1]؛ وعليه فلا يمكن أن نصل إلى المعرفة الصوفية عن طريق الآراء الفردية الذاتية؛ لأنها تتجاوز قدرات الإنسان العادي.

وهنا لا يهدف إدريس شاه أن يضع الأفكار الصوفية في شكل يتحدى قدرات الإنسان العادي، ولكن من أجل أنها تزوده بهدف أسمى؛ ليدرك أن هناك مهاما راقية للفكر الصوفي؛ ولذلك ترى الصوفية أنه باستطاعة الإنسان أن يكون موضوعيا، وتلك الموضوعية تمكنه من الوصول إلى حقائق سامية؛ وعليه فالإنسان مدعو لأن يدفع بنفسه تجاه ما يطلق عليه الإدراك الحقيقي[2].

ولذلك يرى أنه إذا كانت المعرفة الصوفية مجرد خبرة نظرية فقط، فيمكن للمرء الحصول على كل معارفه من الكتب، كما هو الحال في مجالات أخرى، ولن تكن هناك حاجة إلى الممارسين والمعلمين، كما لم تكن هناك حاجة أيضا للمحاضرات المباشرة، إذ يمكن للناس قراءة الكتب، أو سماع المحاضرات عن طريق التسجيلات فقط، ولكن هذا لا يعني أن المعرفة الصوفية لا تفيد من الكتب؛ ذلك لأننا نعيش في ثقافة أدبية رفيعة، ويمكن أن تكون الكتب والوسائل الآخرى لنقل المعرفة مثمرة بشرط أن يعرف المرء كيفية استخدامها؛ ولذلك فإن للمعرفة الصوفية شكلاً خارجيا يتمثل في إعادة صياغتها باستمرار، والمحافظة على الاتصال بثقافة العصر، كما لها شكل داخلي يتمثل في مهمة المدرسة والمعلم في عملية التعلم[3].

---

[1] المصدر السابق، ص31.

[2] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص42.

[3] Shah, Idries. (2002). Neglected Aspects of Sufi Study. The Octagon Press. London, PP.8, 11.

ولذلك فإن التطور الحقيقي للصوفية وتطبيقاتها لا يمكن العثور عليه فقط في العمل الأكاديمي؛ إذ يجب استيعاب التصوف عن طريق عملية متقنة حكيمة يمكن مقارنتها بعمل الخبير في الفن؛ إذ ترتكز الصوفية على التجربة، ولا تكون متاحة عن طريق الأفكار الجامدة، بل يجب تنميتها عن طريق وسائل وممارسات مختلفة مثل: الاستماع إلى الموسيقى ... وغيرها التي لها وظيفة تهذيبية في نفس المتعلم[1]، ويشير هنا إلى قول أحد الصوفيين "السيد إمام علي شاه" (ت: 1855م): "... يمكن أن يدنو المرء من التصوف بدراسة العوامل التي تدخل في تعليم الإنسان كيفية التعلم، لا بمحاولة الوصول إلى المعرفة من دون ممارسة صحيحة..." [2]؛ ولذلك فالمعرفة الصوفية عميقة الفهم تختلف عن معرفة الإنسان العادي، فلا يمكن إدراكها من دون ممارسات وتمارين وتجريب.

وتنطوي الصوفية على مجمل الشعائر التي يؤديها الصوفيون؛ ومن ثم لا يمكن أن نعني في الحقيقة أي تصوير نظري لطريقة الصوفيين؛ فليس هناك صوفية نظرية أو ذهنية أكثر من أن تكون حركة صوفية؛ وذلك لأن كل صوفية تعد حركة، وتلك الحركة تضم كل الظواهر[3] ، كما نجد أن التصوف ينطوي على جانبين، أحدهما- عملي الذي يتمثل في الزهد، وما ينطوي عليه من حياة العبادة، والانقطاع إلى الله، والعزوف عن الدنيا، وشهواتها، والأخذ بأنواع المجاهدات والرياضيات، والآخر- إشراقي الذي يتضمن كل ما يلزم عن حياة الزهد من الأحوال، وما ينكشف للصوفي بعد تصفية النفس وتطهيرها، وما يدركه من معاني القرب الإلهي التي تعرف عند الصوفية بالاتصال بالله[4].

---

(1) Ibid, P. 51.

(2) إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 291.

(3) إدريس شاه، الصوفيون، ص 119.

(4) أبو أبو العلا عفيفي، التصوف. الثورة الروحية في الإسلام، دار الشعب للطباعة والنشر، بيروت، ص ص 98، 99.

ولذلك يشير مصطلح "الصوفية" إلى مجموعة واسعة من الممارسات والمفاهيم التي لا يمكن إعطاء تعريف واحد لها؛ إذا تعبر الصوفية في جوهرها عن الممارسة الروحية التي تسمى "تصوف"، والتي غالبا ما تنطوي على نقل وتلاوة ابتهالات، بشكل فردي وجماعي، وعادة ما يكون ذلك بهدف تنمية الخبرات الروحية، ولكن بالإضافة إلى ذلك، أصبحت المفاهيم والسمات الصوفية لها أهمية ثقافية واضحة، فيمكن فهم التقاليد الصوفية على أنها تشمل مجموعة من الممارسات والعلاقات الاجتماعية، وقد تنبأ العديد من المحدثين بزوال مثل هذه الاتجاهات الصوفية في عالم حديث علماني وعقلاني لا يأخذ بهذه الأمور، ولكن هذه الانتقادات تستند إلى مفاهيم خاطئة حول طبيعة الصوفية والإسلام والحداثة، إذ تغلغل الفكر والممارسات الصوفية على نحو واسع، وقد كانت الممارسة الصوفية جزءا أساسيا من روحانية وفكر علماء الإسلام الأكثر تماسكا على نطاق واسع تماما، كما كانت جزءا من الممارسات الأكثر شيوعا في الإسلام، وعلى الرغم من أن مكانة الصوفية قد تطورت بالفعل في العصر الحديث، على عكس توقعات الحداثيين والإصلاحيين الإسلاميين؛ فإن الممارسات الصوفية تزدهر عالميا؛ إذ تستمر الصوفية في جذب الناس من مختلف الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والعرقية في جميع أنحاء العالم، ولذلك كانت الممارسة الصوفية الروحية لعدة قرون جزءا لا يتجزأ من أي ممارسة دينية للمسلمين في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي[1].

وهكذا تعتمد المعرفة الصوفية على جانب كبير من الممارسات والرياضيات التي لا يدركها إلا المتصوفون الحقيقيون؛ ولكن ذلك لا يعني أن إدريس شاه ينكر قيمة الجانب النظري للمعرفة؛ ذلك لأنه مثمر حينما يعرف المرء كيفية استخدامه.

وهنا يتساءل: "هل الصوفية أو التصوف نوع من أنواع السحر، هل توصف بأنها فلسفة، أم أنها دين أم جماعة باطنية، وهل تعد ممارسات شعوذة أم أنها المنبع الرئيس

[1] Hill, Joseph. (2019). “Sufism between Past and Modernity”. PP.1-2.

لكل الفنون والأدب والشعر، وهل يمكن أن يكون التصوف شيئًا شبيها بالأنظمة العسكرية كالفروسية مثلًا أم هو نوع من العمل التجاري أو السحر؟"[1].

(3) التصوف المصدر الرئيس للفنون والعلوم:

يذهب إدريس شاه إلى القول بأن ما تحرزه الصوفية يتأثر بسبب سوء الفهم، أو سوء الاستخدام؛ فهناك ظاهرة حديثة انتشرت في الغرب، وهي ممارسة بعض الأفكار الروحية؛ والتي يعرفها آلاف الناس هناك باسم "السوبود"[*]، وتلك الأفكار تقتفي أثر الطرق النقشبندية والقادرية؛ إلا أن استعمالاتها الحديثة اختلفت تماما؛ إذا نجد في الاجتماع الذي يعقده السوبود انتظار الفرد لممارسة بعض التدريبات التي يعتقد أنها من تأثير الإله فيه[2].

وهناك أيضا بعض الحركات التي أطلقت على نفسها اسم الصوفية؛ فنجد كل منها تجعل من مؤسسها مثلًا أو نموذجا للكمال الإنساني، وتتيح لأتباعها مجموعة من الطقوس الدينية لممارستها، ويرى إدريس شاه أن المكاسب التي توجد في التعاليم الصوفية تتأثر بالخسائر التي تسببها تلك الممارسات الخاطئة[3]؛ وهكذا فعلى الرغم ما تحققه تعاليم الصوفية، وممارستهم من تحسين وعي الأفراد، والوصول إلى حقائق سامية، إلا أنها تتأثر بما تسببه الأفكار الخاطئة الناتجة عن سوء الفهم.

كما يذهب إلى أن احتواء الأدب الصوفي لأفكار سابقة لزمنها من المسائل التي وجدت الكثير من المعارضة؛ فإن معظم الكتب الصوفية التي ترجمت إلى اللغات الغربية تتضمن تعابير توضح المكتشفات الجديدة في علم النفس، كما أنها تشرح بعض

---

(1) إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص33.

(*) السوبود Subud: هي حركة دينية إندونيسية تقوم على تمارين تلقائية، ونشوة روحية، تأسست في عام 1933م من قبل محمد صبح، والسمة الأساسية المميزة لهذه الحركة أنها تعد نشاط روحي جماعي يسمح فيه الممارسون بالتعبير عن أنفسهم عن طريق نشاط عفوي غير مقيد؛ إذ يعتقدون أن الفناء والصراخ والضحك يؤدي إلى مشاعر النشوة، والتحرر، وتعزيز الشفاء النفسي والجسدي.
(CP: Wolff, Anita. (Ed). (2006). Britannica Concise Encyclopedia. Chicago, London, New Delhi, Paris, Seoul, Sydney, Taipei, Tokyo, P. 1837).

(2) إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 34.

(3) المصدر السابق، ص 37.

الاكتشافات الفنية والعلمية وتبرزها؛ كما نجد في الصوفية إشارات إلى القوى الكامنة في الذرة، والبعد الرابع، والنسبية، وغزو الفضاء، والتخاطر، ويمكن الحكم على المعرفة التي أ حرزها الصوفيون في الماضي وفق ما توصل إليه العلم في الوقت الحاضر، أو ربما لا زالت بحاجة إلى بعض التحقيق من قبل العلماء، فعلى سبيل المثال: كأن الناس ينظرون إلى إدعاءات الصوفية التي تقول بأن الإنسان نشأ من البحر، وأنه تطور عبر فترة هائلة من الزمن على أنها هراء؛ وذلك حتى وضع أصحاب النظرية الداروينية يدهم على هذا الموضوع[1].

وهكذا يعد التصوف المنبع أو المصدر الرئيس للفنون، والأدب، والشعر، والعلوم؛ وبذلك يكون إدريس شاه قد استطاع أن يرد على الإدعاءات التي ترى أن التصوف يمثل ممارسات سحرا أو شعوذة.

وبعد أن أوضحنا مدى اختلاف معرفة الصوفي عن معرفة الإنسان العادي؛ فقد جمعت المعرفة الصوفية بين النظرية والممارسة، هنا نتساءل: هل ارتبطت المعرفة الصوفية بالواقع؟

(4) علاقة المعرفة الصوفية بالمجتمع الإنسانيّ:

يذهب إدريس شاه إلى أن معرفة المرء تتضمن طريقة تفكير مجتمعه؛ إذ إنه نتاج مجتمعه، وأن هذه المعرفة يمكن الحصول عليها في الواقع عن طريق الملاحظات الأنثربولوجية والنفسية التي أوضحاها الصوفيون في سياق تعليمهم؛ إذ إنهم أشاروا إلى كيفية تبنى رؤى جديدة وواعدة، كما أنه ينبغي على المرء رؤية نفسه بعيون أخرى غير عينيه، وذلك عن طريق تقييم الأخريين له[2].

ولذلك يرى أن الناس حريصون على فهم أنفسهم، وهذا جزء من نشاط الاستعداد الصوفي، وتوجد بعض الأساليب والطرق جديرة بالملاحظة؛ لأنه في هذ المجال من الممكن أن يتعلم الناس من سلوك الأخرين، كما أن ما يعتبره بعض الناس نقدا ينظر إليه أيضا على أنه وصف لموقف ما، كذلك يعد وصف الأشخاص وسلوكهم في حد ذاته جزءا لا يتجزأ من عملية التدريس، وقد كان الإصرار في التدريس يوازيه المثابرة

---

(1) إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص ص 34، 35.

(2) Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn "Psychology and Spirituality in the Sufi Way". P. 30.

في التعلم، ويتم تحفيز الناس عن طريق مناهج مختلفة[1]؛ ومن ثم يعتمد التعليم على جانبين: المعلم عن طريق إصراره على التدريس، والمتعلم أو التلميذ عن طريق مثابرته على التعلم، وذلك ما سوف يتضح لنا بالتفصيبل في التعليم الصوفي.

وهكذا بعد أن أوضحنا أن المعرفة الصوفية لا يمكن أن تقتصر على الجانب النظري فقط، بل تعتمد على الممارسات؛ ومن ثم فهي تحتاج إلى الممارسين والمعلمين، ومن هنا ننتقل إلى محور أخر: التعليم الصوفي عند إدريس شاه، وفيه نوضح حقيقية التعليم الصوفي، وهل يختلف عن التعليم الإكاديمي؟، وما دور المعلم أو المرشد الصوفي؟.

رابعًا- أهمية التعليم أو الإرشاد الصوفيّ في تطوير الإنسانية:

(1) المتطلبات الأساسية لدراسة التصوف:

وفي البداية نتساءل: هل يعد التصوف علما؟

يذهب كبار الصوفيين إلى أن التصوف علما، ولكن بما أن العلم يتعامل مع الحقائق المعروفة والقابلة للتحقق، فالسؤال: كيف يمكن تسمية الصوفيين بالعلماء؟ هنا نجد أن الكثير من الأشياء التي يقبلها العلم بوصفها حقائق تمثل فرضيات تناسب جميع أو معظم الحالات التي يتعامل معها، وحينما تظهر حالات جديدة غير مناسبة، تتغير الحقائق وتظهر نظريات جديدة لتحل محلها بدورها، أما الصوفيون فعلى الرغم من كونهم لا يفعلون سوى تكرار ما حُدّد بالفعل؛ فهناك الكثير من الأمثلة في التصوف على المواقف التي تعد بمنزلة آراء، إلّا أن التصوف هو تعليم؛ إذ يحتوي على مقدار معرفي ينقله الصوفي إلى أولئك الذين لم يحصلوا عليه[2].

ولذلك فيعد الهدف من التصوف هو أن يقدم مادة مثمرة وليست ترفيهية أو نوعا من التسلية؛ ذلك لأنه ليس له نطاق زمني للدراسة كما هو الحال في الدراسات الفكرية أو الاجتماعية، فضلاً عن أن الصوفيين ينظرون إلى الأشياء في العالم من حيث المجال الاجتماعي والنفسي، ولا ينظر إلى الممارسات والمناقشات الصوفية وما إلى ذلك على

---

[1] Shah, Idries.(1997). The Commanding Self. The Octagon Press. London, PP. 20, 23.

[2] Shah, Idries. (1992). Seeker After Truth, "From Jales, Discussions and Teachings, Letters and Lectures. P.P. 29- 30.

أنها مجرد معلومات توضيحية، ولكنها في المقام الأول تعليمية، وقد يكون لبعض المواد الصوفية جاذبية ثقافية، وقد يحتوي بعضها على معلومات توضيحية، ولكن ذلك ليس أغراضها الرئيسة[1].

ويرى إدريس شاه أن التصوف دراسة غير مدرسية؛ فتوخذ موادها من كافة أشكال التجربة الإنسانية، كما أن كتبها تختلف عما نجده في الدراسة الأكاديمية، فدراسة التصوف تتضمن كتبا وجهدا وتدريسا، وعلى الرغم من أننا نطلق على معلمي الصوفية لقب المعلمين؛ فإن حقيقة الأتصال بين المعلم والمتعلم في التصوف تختلف عن الدراسة العادية[2].

فقد تمت كتابة آلاف الكتب والدراسات حول الصوفية والصوفيين، وكانت النتيجة إحداث نوع من الارتباك لدى القارئ، ولعل أبرز ما يحاولون القيام به هو بحث وتقييم الظاهرة الصوفية عن طريق مجموعة من المفاهيم المسبقة المرتبطة بالثقافة في حين إن الطريقة الصوفية في بحثها تختلف عن هذا؛ ذلك لأن الصوفيون هم عمل يجمع بين النزعة العاطفية مع التفسير والتحليل للمفاهيم المختلفة، وهو ما يعرف بالقيادة الذاتية، ويجب أن يكون المعلم الصوفي شخصا قد اختبر جميع مراحل الطريق الذي سيوجه فيه تلاميذه[3].

ولذلك يذهب إلى أن البيئة الثقافية في الغرب توفر أكثر من الوسط الثقافي الشرقي للعقلية التي تشجع قيادة الذات، والسبب في ذلك أنه في الغرب ينصب تركيز الثقافة السائدة على سرعة الحصول على الشيء وتطويره، فعلى سبيل المثال: المنتجات أو الأفكار وذلك بعد تعزيز قيمتها، وما إلى ذلك، وقد أتخذ هذا في المجالات الروحية والنفسية وغيرها شكل الأشخاص الذين يحاولون التدريس أو التفسير أو العلاج، ويتسم

---

(1) Shah, Idries. (2002). Neglected Aspects of Sufi Study. PP. 54- 57.

(2) إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 302.

(3) Shah, Idries.(1997). The Commanding Self. PP.1-2.

القائد الذاتي بسرعة البديهية والذكاء وذو ثقافة رفيعة، ومع ذلك نجد أن بعض الناس هي شخصيات تابعة بطبيعة تكوينها[1].

وهنا أشار إدريس شاه إلى بعض الأمور؛ من أجل دراسة التصوف، التي تتمثل فيما يأتي: أولاً– أن تبدأ جميع مناهج الدراسة برغبة الفرد في التعلم، ثانيا– دراسة المرء الافتراضات الكامنة وراء أفعاله، ثم دراسته الخيارات الكامنة وراء افتراضاته، ثالثاً– إذا فعل المرء شيئاً ما، وكان كل شيء على ما يرام، فكيف يمكن فعل ذلك بطريقة أخرى؟، رابعا– ممارسة القوة عن طريق اللطف؛ فقد يكون هذا أكثر تأثيرا مما يمكن أن تتسب فيه القسوة، خامسا– الشخص الذي لديه المعرفة يجب أن يؤدي الوظيفة، ولكن الشخص الذي لا يفعل لا يمكنه أن يدعى لنفسه شيئاً بغير حق، سادسا– لا تحاول أن تكون متواضعا، بل تعلم التواضع، سابعا– تقليد الفضيلة هو نسخ أكثر من كونها فضيلة، فلابد من أن تتعلم ما تقوم عليه هذه الفضيلة، ثامنا– إذا كنت تبحث عن معلم، حاول أن تصبح طالبا حقيقيا، وإذا كنت تريد أن تكون طالبا، فحاول العثور على معلم حقيقي، تاسعا– إذا كنت لا تستطيع أن تضحك كثيرا وبصدق فليس لديك روح، وأخيرا– حينما يصبح الاعتقاد ليس إلا مجرد أداة، فإنك تضيع، وتظل ضائعا؛ حتى تتعلم ما هو الإيمان حقاً[2].

ولذلك تختلف دراسة التصوف عن الدراسة العادية أو الأكاديمية؛ فالهدف الرئيس من دراسة المناقشات والممارسات الصوفية تعليمي، على الرغم من أنها تتضمن بعض المعلومات الثقافية، فإن هذا لم يكن هدفها الرئيس؛ ومن ثم فلابد من أن يتوفر في التعليم الصوفي عنصرين رئيسين: المعلم والمتعلم، والمعلم هنا يمثل المرشد الصوفي أو المربي، والمتعلم هنا يمثل التلميذ أو المريد، وهنا نتساءل: ما الفرق بينهما، وما الشروط التي يجب أن تتوافر فيهما؟

(2) دور المعلم أو المرشد الصوفيّ:

---

[1] Ibid, PP. 6-7.

[2] Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn "Psychology and Spirituality in the Sufi Way". P.P. 91- 92.

يقول إدريس شاه إن: "... الدراسة الصحيحة للأفكار الصوفية تقتضي الاستفادة من الأدب الصوفي، وتعتمد على الاحتكاك بالمعلم الصوفي..."[1].

فقد أجمع الصوفيون على أهمية المعلم أي: المرشد؛ إذ يوجه المتعلم من قبل المرشد؛ فوجوده مهم للغاية؛ ذلك لأن الكثير من الصوفيين ليسوا معلمين كما هو الحال في أي مجال آخر؛ لأن التدريس هو دعوة مفتوحة فقط لأولئك القادرين حقًا على أداء وظائفه، ويعد المعلم أعلى مرتبة[2]، أما المريد أو المتعلم فيعرف عند الصوفية، بأنه ذلك الشخص الذي يريد أن يجمع الفضائل المفيدة؛ حتى يصبح متصوفًا حقيقيا[3]، إذ يقول إدريس شاه إن: *"... التلمذة مطلوب أساسي في الطريقة الصوفية..."* [4]؛ إذن يقوم التعليم الصوفي أو الطريقة الصوفية على أمرين: المعلم أو المرشد، والمتعلم أو التلميذ.

ويجب على المرشد أن يكون قادرا على تحديد قدرات التلميذ؛ حتى يمكن أن يتعامل مع هذا التلميذ وفق إمكانياته الكامنة؛ فنجد مثلًا إذا كان التلميذ لديه قدرا من الوعد والالتزام؛ حتى إذا كان ضئيلًا؛ ومن ثم فعلى المرشد أن يلجأ معه إلى وسائل صارمة، على سبيل المثال: التأنيب، وأن يأمره باتخاذ مواقف ذهنية محددة لتغيير تركيزه غير المتوازن، وإذا كان التلميذ ليس لديه مثل هذا الإدراك، فلن يكن المعلم مرشدا له[5]، كما أنه يرى من الخطأ أن يكون المتعلم الذي لديه استعداد للتعلم، أنه لا يستمع إلى المعلم بشكل كاف أو لا ينظر إلى الصورة بأكملها؛ ومن ثم فأفضل سبيل للخلاص من ذلك هو ضرورة التحلي بالصبر[6].

ورأى إدريس شاه أنه إذا كان هدف المرء من التصوف هو أن يصبح صوفيا؛ للوصول إلى نوع معين من الفهم للأشياء؛ فإن هذا ما يسميه بالإدراك فائق الأبعاد، إلا

---

[1] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 52.

[2] Shah, Idries. (1993). “Sufi Spiritual Rituals and Beliefs”. PP. 6-7.

[3] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 82، "الهامش- المترجم".

[4] المصدر السابق، ص 300.

[5] إدريس شاه، الصوفيون، ص 414.

[6] Shah, Idries. (2002). Neglected Aspects of Sufi Study. P. 69.

أن هناك بعض الاختلافات بين الفكر الصوفي والعمل الصوفي، ولعل أبرز هذه الاختلافات هو أن تطوير الصوفية وتطبيقاتها بوصفها دراسة يتم تنظيمها وإبرازها عن طريق المرشد الصوفي؛ وذلك في ضوء تجربته الخاصة وممارساته، وبما يتوافق مع الإمكانات الفعلية لطلابه وليس عن طريق التحدث في الفراغ كما كان، والتكيف مع الظروف السائدة من دون الانصياع للتقليد الموروث[1].

ويعد نقل الفكر الصوفي والعمل الصوفي للمريد هو في حد ذاته أحد الاهتمامات الرئيسة للمرشد الصوفي، ويتمثل ذلك التعليم في المعلومات والتدريب وتنمية القدرات في المتعلم؛ إذ يقول المعلم الصوفي: نحن نساعد على نقل الفهم الصوفي سواء كان ذلك يتضمن تعليمات أو معلومات أو تدريبا أو تطويرا[2]،

ويتساءل إدريس شاه: هل يمكن توقع تصرفات الفرد؟ وهل يمكن لمعلم الصوفية أن يساعد شخصا ما على تجنب إضاعة حياته في الدراسات والأبحاث أو في ممارسات غير ضرورية؟ يجيب عن ذلك، أنه بوجود معلومات كافية يمكن توقع تصرفات الناس، أما مساعدة الصوفي للشخص على تجنب تضييع الوقت؛ فإن هذا هو واجب الصوفي تجاه طلابه[3].

وقد استخدام بعض معلمي الصوفية مجموعة من التعبيرات لإعطاء فكرة صحيحة عن تعاليمهم[4] ، وهذا ما نجده في التصوف؛ إذ إن الأشياء المكتسبة ليست دائما رمزية ولا دائما واقعية، ففي التصوف يتم الاستعانة بحكايات رمزية ذات مغزى أخلاقي، مثل: فريد الدين العطار؛ وذلك بالمعنى الواقعي والرمزي، وكذلك نجد أن الحكايات الرمزية للرومي، وهي من الـ حكايات التي تؤكد للباحث الصوفي على الأهمية الكبيرة التي يلعبها التعلم غير المباشر أي: الرموز لدى الصوفية[5].

---

[1] Shah, Idries. (2002). Neglected Aspects of Sufi Study. P. 49.

[2] Ibid, P. 50.

[3] Shah, Idries.(1997). The Commanding Self. P. 56.

[4] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 147.

[5] Shah, Idries. (1969). Tales of the Dervishes "Teaching- Stories of the Sufi Masters over the Past Thousand Years". PP. 177, 189.

ولذلك نجد لدى الصوفيين بعض الرموز اللافتة للنظر التي تستهدف الإشارة إلى كل من مسار وحالة الجنس البشري حينما يضل أو يجهل الطريق؛ إذ يوضح الصوفي لـ لفرد العادي كيف يحاول شق طريقه في الحياة؟ ويستطيع الشخص المتعلم تذوق شيء من نظرة الصوفية للحياة والفكر والسلوك(1).

وهنا يتساءل: هل هناك قيمة في دراسة تعاليم وأنشطة الصوفية والتقاليد السابقة؟ والسبب في إثارته هذا التساؤل، نظرا لما تبدو عليه هذه التعاليم من أنها تنتمي إلى حقبة ماضية، يجيب على ذلك بأن هناك قيمة في دراسة الأفكار والتعاليم المسبقة ولكن التي لها تطبيقات معاصرة، وهذا بدوره يعني أن مجرد التقليد لا فائدة منه؛ فدراسة الصوفية بمثابة "إرشاد" وليس محاكاة أو حتى تقليد؛ لذلك نعود إلى مسألة المعلم وخبرته، وهذا مهم للغاية بحيث يمكنك في الواقع تمييز معلم زائف أو مخادع عن طريق ملاحظة أن أي شخص يعمل على تكرار الممارسات الصوفية الموصوفة لعشرات أومئات أو حتى آلاف السنين ليس معلما صوفيا على الاطلاق، أي: أنه يكون شخصا متمسكا بالتقاليد أو رجل دين، ولكنه لا يستطيع المساعدة في تطوير التصور الصوفي في الآخرين أو في نفسه(2) ؛ وذلك لأن مهمة المعلم أو المرشد الصوفي أن يساعد على تطوير الصوفية عن طريق التطبيقات المعاصرة للتعاليم والأفكار المسبقة وليس الاعتماد على التقليد أو التكرار.

ويذهب إدريس شاه إلى أن المرء يتعلم طوال الوقت، ولكن قدرا كبيرا مما يتعلمه غير محسوس بالنسبة له، وإن قدرا كبيرا مما يعرفه ليس معرفة مناسبة؛ ولذلك حينما نتحدث عن تعلم كيفية التعلم؛ فنعني به الحاجة إلى الشعور بالتمييز فيما يتعلق بأجزاء ما نتعلمه ذات قيمة تقدمية، وهذا يعني أيضا متى وكيف وأين نستخدم التعلم من أجل التطوير المخطط له، ويجب ألا يكون موقف الشخص غامضا بسؤاله: "كيف يمكنني البدء في التعلم؟"، ولكن يتساءل: ماذا أفعل حيال نفسي؟؛ لذلك يرى إدريس شاه: أنه إذا تخيل المرء أن رغبته في التعلم غير موجهة للتقدم؛ فيصف نمط تفكيره بالافتقار ؛ لأنه يفتقر

(1) Shah, Idries. (1993). “Sufi Spiritual Rituals and Beliefs”. PP. 10, 12.

(2) Shah, Idries.(1997). The Commanding Self. PP. 19.

إلى المعلومات عن كيفية التقدم؟ ويوجد بعض الأمور في كيفية طرح الأسئلة ومنها: أولاً– أن يكون الشخص الذي طرح السؤال صادقاً وليس هدفه تضييع الوقت، ثانيا– أن يصيغ السؤال بشكل صحيح؛ ليعبر عن حاجاته الحقيقية، ثالثاً– القدرة على فهم الإجابة والاستفادة منها[1].

وقد استدل بأمثلة من أحد الصوفيين المسلمين "جلال الدين الرومي"؛ إذ إنه أشار إلى أن الإنسان هو نتاج التطور، وأنه يواصل هذه العملية، ولكن الملكات الجديدة، التي يرغب إليها من دون علم بوجه عام، تظهر لديه بوصفها نتيجة لرغبته الملحة، أي: عليه أن يشارك في تطوير ذاته؛ وحينما لا يدرك الإنسان ذلك يكون في حالة يشار إليها باسم "النوم"، فعليه أن يستيقظ، وهناك وسيلة لفعل ذلك، ولكن هذه الوسيلة ليست عن طريق المسعى المدرسي أي المتعلق بمذهب أو فرقة، بل عن طريق ما يسمى "الإدراك المباشر للحقيقة"، ولكن طريقة تفكير الإنسان تقوم على أساس التتابع وتغييرات الحالة المزاجية (الطبع)، وأن تصورات الإنسان في الغالب خاطئة أو بها عيوب؛ لأنها ذاتية ونسبية، كما أنها مشروطة بحيث نجده يفسر الأشياء وفق معايير نسبية وليست موضوعية؛ لذلك قد يقال إن لديه قدرة محدودة على الحكم الحقيقي، وهناك عوالم ذهنية تتجاوز قدرة الإنسان العادية، ولا يمكن ترجمة هذه العوالم المتقدمة تماما بلغة العقل كما هي؛ وبسبب هذه القيود يحتاج الإنسان إلى إرشاد من لديه معرفة أكثر؛ من أجل المساعدة في الوصول إلى حالة عليا من الإدراك[2] ؛ إذن تتمثل أهمية التعليم الصوفي في أن له قيمة تقدمية؛ إذ يساعد الإنسان على تطوير ذاته؛ للوصول إلى مرحلة عالية من الإدراك؛ ذلك عن طريق المرشد الصوفي.

ولذلك يمكننا أن ننظر إلى التصورات الصوفية في ضوء مراحل التعلم الثلاث الآتية، أولهما– المتعة حينما يحصل المتعلم على التعليم، وثانيهما– العمل حينما يحاول المتعلم استخدام ما تعلمه، وثالثهما– الانتشار بحيث يكون التعليم قادرا حقًا على التأثير؛ ليصبح نشطاً في الفرد، ومن خلاله، ولكن إذا لم يستكمل الفرد معارفه وتعلمه؛ فإن هذا لا يؤدي إلى

---

[1] Ibid, PP. 71- 73.

[2] Shah, Idries. (1968). Special Problems in the Study of Sufi Ideas. P. 35.

النتيجة المرجوة، ووفق ذلك فإن مهمة المعلم بين الصوفيين تتمثل فيما يأتي: أن يكون لديه الخبرة اللازمة لمعرفة الغاية أو الهدف، وأن يكون لديه القدرة لتقييم حالة الفرد، وأن يكون لديه القدرة على مراقبة تقدم المتعلم ومساعدته[1].

وهكذا بعد أن أوضحنا المتطلبات الأساسية لدراسة التصوف التى تختلف عن الدراسة الأكاديمية، وأهمية التعليم الصوفي في إرشاد المرء على تطوير ذاته؛ وليس تقليدا أو تكرار الممارسات الصوفية؛ وذلك يتمثل في مهمة المعلم الصوفي، على العكس من رجل الدين الذي يوضح للناس أحكام الشرع التي يتبعوها، ولكن هذا لا يعنى أن طريقة الصوفية تختلف تماما عن طريقة الإسلام، فهناك جوانب تشابه بينهما، فما أهم هذه الجوانب التي عرضها إدريس شاه؟

(3) أوجه التشابه بين طريقة الصوفية وطريقة الإسلام:

يذهب البعض أن الطريقة الصوفية لا تختلف عن طريقة الإسلام، ولكنها تتبع المعنى الباطني للقرآن؛ إذ نجد أن الغزالي وأبا حنيفة مسلمون وصوفيون في الوقت نفسه؛ ومن ثم فلا يمكن لأحد أن يتصور الفكر الصوفي غائبا عن أي إطار ديني شرعي[2].

فنجد بعض الصوفيين يستشهدون بقوله تعالى: "فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما" (سورة الكهف- الآية 65)؛ من أجل توضيح وجود تشابه وثيق بين التعليم الصوفي، والتعليم الإسلامي؛ إذ يلتقي مدرس ذو معرفة خاصة ألا وهو الخضر[*] "المرشد المترحل" بموسى ويعلمه أن هناك معاني في الحياة تتجاوز المظاهر أي: ماهو ظاهر، ويطلب موسى أن يتعلم الحقيقة، فإن الرجل يجيب "إنك لن تستطيع معي صبرا"، ولكن أصر موسى على طاعة هذا الرجل في كل شيء، ويبدأن في الرحلة؛ وذلك ما يتشابه عند الصوفيين باتباع المسار أي: "الرحلة" مع الالتزام بالطاعة والصبر؛ وذلك عن طريق عدم طرح موسى للخضر أية أسئلة، وتوضح لنا

---

[1] Shah, Idries. (2002). Neglected Aspects of Sufi Study. P. 46.

[2] Shah, Idries. (1993). "Sufi Spiritual Rituals and Beliefs". P. 7.

[*] الخضر: هو المرشد اللامرئي للمتصوفين، ويعتقد أنه المرشد المجهول لموسى عليه السلام في القرآن الكريم. (انظر: إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 213).

هذه الرحلة: الطريقة التي يؤدي بها المعلم الصوفي وظيفته في الحياة؛ إذ نلاحظ أن التلميذ إذا كان غير قادر على مواكبة أستاذه؛ فيجب استبعاده مهما حاول، ولكن عند سماع أو قراءة هذه الآية، فإن بعضهم يتساءل: لماذا يجب أن يثق التلميذ بمعلمه إلى هذا الحد، ونجد أن جواب الصوفي على هذا هو ببساطة أنه من دون هذه الثقة لا يمكن التعلم[1].

وهنا نرى كيف ربط إدريس شاه بعض سمات الطريقة الصوفية بقصة سيدنا موسى "عليه السلام" مع العبد الصالح "الخضر" التي ذكرها الله –سبحانه تعالى– في سورة الكهف، والتي تتجلى فيما يأتي: المعرفة الخاصة لدى المعلم الصوفي، وذلك كما وجدنا عند سيدنا "الخضر"، والالتزام بالصبر والطاعة من جانب المتعلم أو المريد في اتباع الطريقة، وذلك كما وجدنا عند سيدنا "موسى عليه السلام"، وضرورة الثقة اللازمة من جانب المتعلم لمعلمه.

وبعد أن أوضحنا المتطلبات الأساسية لتعلم أو دارسة التصوف، ودور المعلم الصوفي في مساعدة المرء من تطوير ذاته، وأوجه التشابه بين الطريقة الصوفية وطريقة الإسلام، ننتقل الآن إلى توضيح بعض الصعوبات التي تواجه المعلم الصوفي.

(4) الصعوبات التي تواجه التعليم أو الإرشاد الصوفيّ:

نجد كثيرا من الناس يقولون إنهم لا يستطيعون التعلم من الكتب، وبالطبع لا يمكنهم التعلم؛ ذلك لأنه يجب عليهم أولاً أن يدركوا أنه إذا أُرشِدوا بشكل صحيح؛ فإنهم يمكنهم التعلم من الكتب أو من أي شيء؛ فالكتاب بالنسبة للصوفيين بمنزلة أداة لأعطاء المعلومات، وأن المعلومات والمعلم كليهما ضروري، فالمعلم هو المفتاح؛ ولذلك إذا قال بضرورة قراءة هذا الكتاب فعلى المرء أن يقرأه، ولكنه إذ قال المرء لا أستطيع التعلم من الكتاب؛ فإنه يرفض تعلمه من المعلم[1] ، ويرى أيضا أن كثيرا من الناس يجدون صعوبة في فهم الأفكار الصوفية، إذ يتساءل: هل يكون من الأفضل وضع هذه الأفكار الصوفية بشكل أكثر بساطة، مع شرحها بشكل تدريجي، بحيث يمكن للناس أن يتعودوا على هذه

---

[1] Shah, Idries. (1993). “Sufi Spiritual Rituals and Beliefs”. PP. 7,9.

[1] Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn “Psychology and Spirituality in the Sufi Way”. P. 56.

الطريقة الغير عادية في التفكير؟ يجيب عن ذلك بأن عددا كبيرا جدا من الأشخاص لا يجدون صعوبة في فهم الأفكار الصوفية؛ لأن الأمر لا يتعلق بالتبسيط بل يتعلق بأتباع النهج الصحيح[1].

ولما كانت الصوفية عملاً شاملاً؛ ومن ثم فليس في وسع أحد أن ينطلق على درب الصوفية ما لم يكن لديه الاستعداد لذلك؛ لأنه من دون ذلك تصبح إمكانيات الخطأ لديه كبيرة[2]؛ ولذلك لا يمكن للشخص أن يتعلم التصوف إلا إذا كان في حالة يستطيع فيها إدراك ما يتعلمه وما يعنيه، وهذا هو السبب في أن الصوفيين لا يتحدثون عن أشياء عميقة الفهم أو صعبة لأشخاص غير مستعدين لتنمية قدرتهم على التعلم؛ فالتصوف شيء لا يمكن تعليمه إلا لشخص مستنير بدرجة كافية؛ ليقول فيها لمعلمه: "علمني كيف أتعلم؟"[3].

وهنا أرى ضرورة الإرشاد بشكل صحيح؛ لأن التعليم الصوفي يختلف عن أي دراسة أخرى، بالإضافة إلى ضرورة وجود الرغبة والاستعداد من جانب المتعلم؛ حتى يتم التعليم بشكل صحيح.

ويذهب إدريس شاه أيضا إلى أنه من الصعوبات التي تواجهنا في التعليم أو الإرشاد الصوفي، هو اهتمام الاتباع بشخصية الصوفي وسيرته أكثر من اهتمامهم باستخدام التعاليم الصوفية التي تلقوها استخداما حيويا؛ وذلك ما وضحه لنا النفري (ت: 354هـ) منذ آلاف السنين في كتابه (المواقف)، من المخاطر التي يتعرض لها الفكر الصوفي عند نقله؛ فالمعلم الصوفي قائد وموجه وليس معبودا[4] ؛ إذا يعطي المعلم المزيف اهتماما كبيرا للمظهر؛ فإنه يستطيع أن يجعل المتعلم يعتقد أنه معلم عظيم، وأن لديه أسرار عظيمة يستطيع الكشف عنها؛ ومن ثم يجعل المعلم المزيف أتباعه يلتفون حوله طوال الوقت[5].

---

(1) Shah, Idries.(1997). The Commanding Self. PP. 41- 42.

(2) إدريس شاه، الصوفيون، ص 190.

(3) Shah, Idries. (1972). The Exploits of the Incomparable Mulla Nasrudin. (First Published). E.P. Dutton & Co. Inc. New York, P. 54.

(4) إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 48.

(5) إدريس شاه، الصوفيون، ص 226.

وبعد أن تناولنا أهمية التعليم الصوفي في تطوير الإنسانية، نتساءل هنا: هل ارتبط التصوف بواقعنا المعاصر؟، وإلى أي مدى كانت حاجتنا إلى التصوف في مجتمعنا؟

خامسًا- حاجة المجتمع المعاصر إلى التصوف:

يعد التصوف بمنزلة المظهر الروحي الديني الحقيقي للمسلمين؛ وذلك ما نجده عند الصوفية من العاطفة الدينية في صفائها ونقائها، كما أننا نجد في سير الصوفية وأقوالهم ما يشير إلى الصلة الروحية بين المسلم وربه؛ وذلك ما أشار إليه الغزالي أن التصوف وحده من دون سائر العلوم يمثل المنقذ من الضلال؛ ومن ثم فالتصوف ليس أسلوبا يحيا الصوفي بمقتضاه فقط، بل إنه يمثل وجهة نظر خاصة تحدد موقف العبد من ربه، ومن نفسه، ومن العالم، وكل ما فيه، فضلاً عن كونه طريقًا خاصا في الحياة[1]؛ فهو جوهر وحقيقة كل التعاليم الفلسفية والدينية؛ كما أنه يمثل طريقة تقود إلى اكتمال الإنسان؛ ولذلك يصف إدريس شاه التصوف بأنه ليس جزءا من الحياة، بل إنه الحياة ذاتها[2].

فقد كانت الصوفية فطرية في النفس البشرية؛ إذ إنها جزءا من التطور الإنساني الأعلى، فهي لا تخاطب قطاعا من المجتمع، ولكنها تتوجه إلى ملكة معينة داخل كل فرد على حدة، وحينما لا تنشط هذه الملكة؛ فلا توجد صوفية، فالصوفية ليست سوى الحياة الإنسانية نفسها، أما القوى السحرية والميتافيزيقية فليست إلا عوارض بعيدة المدى؛ ولذلك تصبح محاولة المرء أن يكون صوفيا؛ من أجل اكتساب قدرة شخصية محكوم عليها بالفشل؛ إذ إن البحث عن الحقيقة هو العمل المشروع، والوصول إلى الحكمة هو الدافع، والطريق إلى ذلك يمر بالاستيعاب من دون الدرس[3] ؛ وذلك ما أوضحناه في التعليم الصوفي.

ويرى إدريس شاه أنه إذا كانت الصوفية هدفاً للكمال الإنساني؛ فلماذا يكون من الصعب أن تقيم أو تحدد او تثبت في الزمان؟ نجد أنه يرجع السبب في ذلك إلى أن

---

(1) أبو العلا عفيفي، التصوف. الثورة الروحية في الإسلام، ص ص 96، 97.

(2) إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 349.

(3) إدريس شاه، الصوفيون، ص ص 77، 78، 80.

الصوفية تطبق في كل مجتمع، وفي كل وقت، وذلك يمثل أحد أسرارها، كما أن الصوفي ليس بحاجة إلى الاستقرار الاجتماعي؛ إذ إن صلته بالإنسانية متطورة وقابلة للتكيف[1]، ولذلك يرجع السبب وراء الانتشار الساحق لدراسات التصوف الآن في أنحاء متفرقة من العالم الغربي؛ إلى أنه يمثل احتياجا ضروريا لهذه المجتمعات[2]؛ ذلك لأنه لا يرتبط بفئة أو طبقة خاصة في المجتمع، بل أن الصوفية ملائمة لأن تطبق في أي مجتمع، فهي ليست إلا الحياة الإنسانية ذاتها.

فقد كان تطور الصوفي كامنا داخل ذاته، وفي علاقته مع مجتمعه، أي: ارتقاء المجتمع ومصير كل المخلوقات، فعلى الرغم من أنه قد يضطر الصوفي الانفصال بنفسه لمدة من الزمن، على سبيل المثال: لحظة، أو شهر، فإنه في الوقت ذاته مرتبط مع الكل؛ ولذلك تتأثر أفعاله وفق الحاجات الإنسانية وما بعد الإنسانية؛ وهذا ما أكد عليه جلال الدين الرو مي من الطبيعة المتطورة للمسعى الإنساني سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة[3]، أي: التطور الروحاني للإنسان، وسعيه الدائم في الأرتقاء.

إذ يقول جلال الدين الرومي:

"لقد مت من الجمادية وصرت ناميا، ومت من النماء وانقلبت حيوانا.

ومت من الحيوانية وصرت إنسانا، إذن فمن أي شيء أخاف؟ ومتى نقصت من الموت؟

وأموت مرة أخرى من البشرية، حتى أخذ من الملائكة أجنحتها وقوادمها[4].

ولذلك يستطيع المرء أن يحيا حياة صوفية في أي زمان، وفي أي مكان؛ ذلك لأن هذه الحياة لا تتطلب ترك الدنيا أو الانعزال عن الدنيا؛ بل إنه يجب على الصوفي أن يخدم البشرية؛ لأنه جزء لا يتجزأ منها؛ ولذلك تتداخل حدود الصوفية مع الوجود الإنساني، وهذا ما عبر عنه الصو فيون بأن البشرية يمكن لها أن تصل إلى مدارج

---

[1] إدريس شاه، الصوفيون، ص 120.

[2] المصدر السابق، ص 10، (المقدمة).

[3] المصدر السابق، ص 92.

[4] مولانا جلال الدين الرومي، مثنوى، الكتاب الثالث، ص ص 335، 336، الأبيات: (3900– 3905).

الكمال، ولتحقيق هذا الكمال يتطلب التناغم مع الوجود كله، أي ينشأ توازن بين الحياة الجسدية والروحية[1] ؛ ومن ثم لا يصبح الصوفي عن طريق التجارب والممارسات التي يمر بها منفصلاً عن الواقع، بل إنه يعمل بصورة متوازية مع الإدراك الأدنى الموجود لدى لشخص العادي؛ ولذلك تؤكد الصوفية على ضرورة التطور المتوازن بين المدركات الجوانية الروحية وبين السلوك والحياة الإنسانية[2].

فقد كانت الصوفية بمنزلة ثمرة أنتجتها الحضارة الإسلامية منذ القدم، ولكنها شهدت تجديدا في هذه الفترة المعاصرة، إذ يعد وجودها أساسيا بالنسبة للأشخاص الذين يعانون من أزمة روحية؛ فقد أصبحت الصوفية علاجا للمعاصرة فيما يتعلق بأثارها غير الملائمة، إذ تقوم الصوفية ذات التعاليم الروحية بدور مهم؛ كما اكتسب التصوف الآن مكانا متزايدا في المجتمع؛ إذ إنه حل متوقع لمشاكل المجتمع المعاصر، فبالأضافة إلى استخدام الأدوات العلمية والتكنولوجية يجب أن تكون الحياة المعاصرة مصحوبة أيضا بأدوات عقلية وروحية وأخلاقية[3].

والآن، هناك ميل لدى الناس للمشاركة في الأنشطة الروحية أو التصوف؛ فقد ظهرت الصوفية بصفتها جوهر التعاليم الإسلامية بتقديم الحلول والعلاج لمشاكل الإنسان عن طريق التقرب من الله، وينطلق هذا الأمر من ظاهرة في للمجتمع نجدها الآن في الحقبة المعاصرة، فمع التغير الاجتماعي السريع والتواصل بلا حدود، إذ تميل الحياة إلى التوجه نحو المادية والعقلانية؛ وذلك مع تقدم العلم والتكنولوجيا في جميع المجالات، ولكن هذه الحالة لا توفر الراحة دائما، ولكنها تولد نوع من القلق[4].

وهنا أرى أن التصوف يمثل احتياجا ضروريا في واقعنا المعاصر؛ وذلك من أجل تحقيق التوزان بين الحياة الروحية والحياة المادية أو الجسدية؛ ومن ثم نستطيع التغلب ومعالجة أزمة عالمنا المعاصر الذي سيطرت عليه المادية؛ فالمرء يحتاج إلى حياة روحية يحياها؛ ولكن ذلك لا يتطلب منا الانعزال أو الانفصال عن الحياة الدنيا؛ ويمكن

---

(1) إدريس شاه، الصوفيون، ص ص84، 85.

(2) المصدر السابق، ص ص 154، 147.

(3) Umam, Hoerul & Suryadi, Lyad. (2019). "Sufism as A Therapy in the Modern Life". P.34.

(4) Ibid, P.P 35, 37.

القول إن التصوف يلائم ويناسب أي مجتمع؛ لأنه يرتبط ويتداخل مع الوجود الإنساني كله.

وقد أوضح إدريس شاه في التصوف، أنه ينبغي للشخص أن يمارس متطلبات معينة؛ من أجل التعليم والعيش، ففي المجتمعات الحديثة توجد متطلبات متشابهة في كثير من المجالات؛ ومن ثم على الناس فهم المتطلبات على ضوء الرغبة الحقيقية، وتشتمل على سبيل المثال: التواضع، والتفاني، والتعفف، وضبط النفس، والطاعة، فإن لم يمارس الشخص هذه الفضائل فلن يحصل على أي مكان سواء أكان في الأعمال المصرافية، أم في الجيش، أم في الطب، أم في السياسة، أم في أي مكان آخر من أشكال المساعي الدنيوية[1]؛ وذلك مما يدل على الصلة بين التصوف ومجالات الحياة المختلفة؛ فالمتطلبات التي يمارسها المرء في التصوف من أجل العيش والتعلم تصلح لجميع أشكال مساعي الحياة.

ويرى أن صعود الصوفي في العالم المادي استنادا إلى قدرته على الإبداع وجهده؛ حظى بالقبول لدى الكثيرين وفق إنجاراته؛ إذ إن الفتوحات الفلسفية والعلمية التي توصل إليها الصوفيون نتجت عن القوة الخاصة التي يتمتعون بها؛ إذ تقول التقديرات: إنه ما بين عشرين إلى أربعين مليون شخص أعضاء في المدارس الصوفية، أو ينتسبون إليها، بالإضافة إلى أن أعداد الصوفية أصبحت في ازدياد مستمر[2].

ولذلك يؤكد شاه على عالمية الحكمة الصوفية، فيما يعرف باسم "الصوفية الجديدة" Neo– Sufi، مما يفتح المجال أمام التوفيق بين المعتقدات، ويؤدي إلى نوع من عولمة الروح برؤية صوفية؛ ومن ثم أوضح لنا إدريس شاه أن التصوف يمثل "الجوهر الخالص لجميع الأديان والفلسفات"، وقام بتدريس فلسفة مستوحاة من وجهة نظره الشخصية عن الصوفية[3].

(1) Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn "Psychology and Spirituality in the Sufi Way". P. 28.

(2) إدريس شاه، الصوفيون، ص 76.

(3) Geoffroy, Eric. (2014). "The Contribution of Sufism to the Construction of Contemporary Europe's Islam". in: Toguslu, Erkan & Leman, Johan. (Eds). Modern Islamic Thinking and Activism. Published by: Leuven University Press. Jstor. P.82.

وهكذا بعد أن أوضحنا حاجة المجتمع المعاصر للتصوف؛ لأنه ليس سوى الحياة الإنسانية ذاتها؛ فهو أمر فطري في النفس الإنسانية، نتساءل هنا: هل ارتبط التصوف عند ادريس شاه بعلم النفس؟

سادسًا- الجوانب النفسية عند الصوفية:

(1) أهمية دراسة علم النفس لدى الصوفية:

أشار إدريس شاه إلى أن علم النفس يمكن أن ينتج طريقة أفضل لدراسة وفهم الصوفية، وطرق تدريسها، ووجد أنه في الآونة الأخيرة، كان هناك قدر كبير من الاهتمام بربط المعرفة الصوفية بالنظريات التربوية أو النفسية المعاصرة، وتكمن أهمية ذلك في أن الأفراد يمكن عن طريق هذه الطريقة التأكد من أن التدريس الصوفي أصيل بمعنى أنه قائم على معايير يمكن التحقق منها عن طريق طرق التقييم المناسبة، وهذا يشعر الأفراد بأن الصوفية ذات طبيعة حقيقية واقعية[1].

ولذلك يذهب إلى ضرورة دراسة أسس علم النفس في مرحلة "تعلم كيفية التعلم" Learning How to Learn للطريقة الصوفية؛ لأنه إذ لم يكن علم النفس موجها بشكل صحيح، فلا توجد روحانية Spirituality أي: التعلق بالقيم الروحية، ومع ذلك أنه من الممكن أن توجد بعض الهواجس والانفعالات التي غالبا ما يتم الخلط بينها وبين القيم الروحية لدى بعض المدعيين سواء أكان ذلك عن علم أم لا، وهذا ناتج عن عدم الاهتمام بالمستوى النفسي؛ ولذلك يرى "شاه" أنه يمكن التعامل مع ذلك عن طريق قول أحد الصوفيين الشيخ عبد الله الأنصاري (ت: 1989م)، إذ يقول: "ما العبادة؟ هي تحقيق أو إدراك الحقيقة، وما القانون الأسمى؟ عدم فعل الشر، وما الحقيقة؟ هي نكران الذا ت"، وتلك هي الطريقة الصوفية؛ ومن ثم فلا يمكن أن تكون هناك روحانية بالنسبة للصوفيين، من دون علم النفس، والبصيرة النفسية، والتوازن الاجتماعي[2].

ولذلك يرى إدريس شاه إن اختيار الأشخاص للعمل في علم النفس الصوفي لا يعني أنهم مسلوبو الإرادة أو لديهم صفات تتحكم فيهم، بل لديهم القدرة على تطوير صفاتهم

(1) Shah, Idries. (2000). A Perfumed Scorpion. PP. 18, 20.

(2) Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn "Psychology and Spirituality in the Sufi Way". P.80.

أو مهاراتهم في مجالات ومواقف مختلفة، فهم يتعاملون مع المشكلات المختلفة، بالتغلب عليها والاستفادة منها؛ إذ إن حل المشكلات بالنسبة للصوفيون يتمثل في منع وتجنب حدوثها، وهذا ما نجده لديهم في بعض العبارات، على سبيل المثال: "لا أحد ولا شيء يمكن أن يقف بينك وبين المعرفة إذا كنت مستعدا لها، في حين أنه يمكن لأي شخص وأي شيء أن يقف بينك وبين المعرفة إذا لم تكن مستعدا لها"، ونجد أن الشيء الذي يشترك فيه علماء النفس والثقافات الشرقية والغربية هو تأكيدهم أن اكتساب المجتمعات البشرية للمعرفة ونقلها، هذا الأمر يتطلب مؤسسات يمكن عن طريقها تحقيق ذلك، فبعض الأشياء تعلم في المدارس، وبعضها في المعاهد المتخصصة، والبعض في الجامعات[1].

ويذهب إلى أن حالة الجهل الحالية بالثقافات المختلفة والسابقة ليست جديدة؛ ذلك لأن الناس في عصرنا لا يستخدمون وسائلهم المتطورة لاكتشاف المعرفة الموجودة وتطويرها في أنحاء، وأزمنة مختلفة على نطاق واسع؛ وعلى الرغم من وجود الوسائل المختلفة، فإنَّ الرغبة واتساع الرؤية غائبة، كما ينشأ الكثير من المشكلات في الثقافات الحالية؛ لأن الكثير من البالغين يتصرفون مثل الأطفال، والغريب في الأمر أننا نفترض أن هؤلاء البالغين يعرفون الكثير من الأشياء التي لا يعرفونها في الحقيقة[2]؛ وهكذا تبرز أهمية الصلة بين علم النفس والتصوف التي عن طريقها يمكن للمرء من تطور ذاته؛ حتى يكون قادرا على مواجهة أي مشكلة بالتغلب عليها، أو تجنبها.

وبما أن علم النفس الصوفي ينطوي على تناغم أو ارتباط الشخص الصوفي مع الإنسانية ككل، وتوافق مع الواقع؛ فهو تناغم لا يمكن أن يتحقق إلا بعد تدريب وممارسة؛ ومن ثم فإن الصوفية هادفة والغرض منها قبل كل شيء هو الفهم من أجل الفهم؛ إذ يجب على الشخص الصوفي أن يكون لديه المعرفة قبل أن يتمكن من معرفة الأخرين[3].

---

(1) Shah, Idries. (2000). A Perfumed Scorpion. PP. 170- 171.

(2) Shah, Idries. (1991). Reflections. The Octagon Press. London, PP. 9, 18.

(3) Shah, Idries. (2000). A Perfumed Scorpion. P. 164.

ولذلك كشف لنا إدريس شاه رؤى جديدة للصوفية؛ فكما أوضحنا في المحور السابق تداخل حدود الصوفية مع الوجود البشري؛ فهو يمثل احتياجا ضروري في واقعنا المعاصر؛ ومن أجل تكييف وتوافق الشخص الصوفي مع الإنسانية ككل، ربط لنا إدريس شاه التصوف بعلم النفس؛ الذي يجعل من التصوف حقيقة واقعية يمكن التحقق منها عن طريق تقييمها.

وبعد أن أوضحنا أهمية دراسة علم النفس عند الصوفية ننتقل إلى توضيح أهمية القصص التعليمية في حل المشكلات النفسية، وتلك القصص التعليمية التي كانت من أهم الأمور التي اعتمد عليها فكره الصوفي، كما أوضحنا قبل ذلك .

(2) القصص التعليمية تصحيحًا للحالات النفسية.

يعد إدريس شاه القصص التعليمية(*) بمنزلة تصحيحات لمختلف الحالات النفسية، وعلى الرغم من أنها لا تستخدم في المقام الأول بوصفها وسيلة علاجية، ولكنها تستخدم من أجل توضيح ما يفعله الناس بالفعل؛ إذ إن التأثير العلاجي إن وجد فإنه سيحدث بوصفه جزءا من المشاركة في التقاليد أو الأعراف؛ ولذلك ينظر إلى تلك القصص التعليمية على أنها بمنزلة تصحيح وليس علاجا، والهدف منها هو توفير القدرة على الانتباه بأشياء مثمرة للاهتمام، ونجدها لا تعالِج الأعراض ولا تعالج المرض؛ إذ يتوقف المرض عن الوجود حينما يكون الفرد متوازنا بشكل متناغم، ولا يعد ذلك عملية علاجية، فمن المعتقد أن استعادة الانسجام للفرد له أهداف أعلى، وتتمثل في القضاء على ضعفه أو عجزه، وحينما يسود التوازن والانسجام غالبا يتم القضاء على المشاكل النفسية بشكل ملحوظ، فإن هذا أكثر من مجرد نظرية من منظور صوفي؛ لأن نظام التعلم بما في ذلك استخدام القصص هو يعد العنصر الأساسي في التصوف؛ ومن ثم فإن التصوف ليس خارج الممارسة[1].

(*) القصص التعليمية: هي قصص تروى للناس، وتمثل جزءا من نشاط المتصوفين، والغرض منها تكوين أساس للمعرفة الصوفية، والكشف عن معاني الصوفية ومغزاها، ولا تستخدم بهدف التعليم إلا نادرا. (انظر: إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص259).

[1] Shah, Idries. (2000). A Perfumed Scorpion. P. 108.

وبعد أن أوضحنا كيف استخدام إدريس شاه القصص التعليمية لتصحيح الحالات النفسية؟، التي تمكن الفرد من قدرته على الانتباه، ننتقل إلى توضيح الدور الذي يؤديه الانتباه أو الملاحظة عند الصوفيين.

(3) دور الملاحظة أو الانتباه عند الصوفية:

السؤال هنا: هل يمكن تحديد خصائص الانتباه أو الملاحظة لكونها ذات أهمية ضرورية في الدراسات الصوفية؟ قد أشار إدريس شاه إلى أن عامل الانتباه هو أحد مفاتيح السلوك البشري، فيمكن لأي شخص التحقق من العديد من الحالات أو الأمثلة التي يفترض عموما أن تكون معاملات بشرية مهمة حول أي موضوع اجتماعي، وهي في الواقع مواقف انتباه، وقد أكد أنه إذا كان الشخص لا يعرف ما يفعله، فإنه سيكون لديه قدرة أقل على التخطيط لسلوكه، ويرتكب أخطاء الفكر والعاطفة؛ لأنه لا يركز انتباهه فيما يفعله، وإذا كان هذا صحيحا فمن المهم أن يدرك الأفراد ما يأتي، أولاً– أن عامل الانتباه هو عنصر أساس في جميع المعاملات تقريبا، ثانيا– يجب أن تكون الرغبة في الانتباه مثل أي مطلب آخر كالطعام، والدفء ... وما إلى ذلك؛ لأنه حينما يركز الفرد انتباهه بإرادته الحرة فإن هذا يؤدي إلى زيادة نطاق فكر الإنسان، ولن يكون تحت سيطرة مصادر التفكير العشوائية[1].

ولذلك عمل شاه دور المراقب في ملاحظة أي ظاهرة، وقد اعتمد في سرده على توضيح حكايات تعليمية صوفية، فنجده يروي رحلة تم القيام بها عن طريق سلسلة من المصطلحات المختلفة: الحقيقة مع الزيف، والسهولة مع الصعوبة، والبصيرة مع الحماقة أو الجهل، ولكن بالإضافة إلى ذلك، فأنه قام بالتمييز بينهم، عن طريق توضيحه أن إحداهما أقل يقينيا من الأخرى[2].

وهنا يتساءل إدريس شاه: ماذا يفعل المرء تجاه حيرته وشعوره بانعدام قيمته؟، يجيب عن ذلك بأنه يجب على الأشخاص الذين يطلبون إزالة حيرتهم ملاحظة ثلاث نقاط

---

[1] Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn “Psychology and Spirituality in the Sufi Way”. P.85.

[2] Munro, M. (2021). “The Mountain Path: on a Lesson of Fred Moten`s”. P. 36.

رئيسة، ألا وهي: أولًا- يجب أن يقتنع هؤلاء الأشخاص بأنفسهم، ثانيا- يجب عليهم مواجهة ما يكمن وراء ارتباكاتهم، ثالثًا- الكثير من الناس، وهذا بالطبع أمر معروف جيدا اليوم يخلقون الارتباك والخلط، وهم يتخيلون أنهم يحاولون الهروب منه؛ ولذلك ماذا يمكن أن يفعل المرء حيال حيرته؟ هو أن يكتشف سببها، ولماذا توجد، ثم يقرر ما إذا كان يريد فعل أي شيء بصدد ذلك، ويأتي الارتباك أو الخلط من عدم الالتفات إلى ما يجب الانتباه إليه، لذا فأن مشكلة الأشخاص الذين لديهم ارتباك يجب أن يدركوا ذلك، مستخدمين تفكيرهم لمراقبة أنفسهم، وأيضا تقليل التفكير في الارتباك، فعليهم تذكر المثل القائل: "اللافتة أو الاشارة تكفي للتنبيه من ألف مشورة لا تكفي للمهملين أو المتهاونين"[1] ؛ ولذلك أرى أن عامل الانتباه الذي يمثل أحد مفتايح السلوك البشري، ضروري للتغلب على أي مشكلة قبل وقوعها أو حدوثها؛ كما أنه يساعد الفرد على تجنب الخلط في الأمور.

وكما أوضحنا فيما سبق مدى اهتمام إدريس شاه بالتراث الصوفي الأصيل الذي اعتمد عليه في فكره الصوفي، هنا نتساءل: هل كان للصوفيين الشرقيين إسهامات في مجال علم النفس؟

(4) إسهامات الصوفيين الشرقيين في مجال علم النفس.

ذهب المستشرقون في الغرب إلى أن الكثير من المتصوفين أمثال: جلال الدين الرومي، والحكيم السنائي، والغزالي، وابن عربي قد تحدثوا عن أمور نفسية ونظريات في علم النفس، وخطوات في المعالجة النفسية، وربما لم تكن هذه النظريات مفهومة لو لم توجد البنية الخلفية المعاصرة لهذه الأفكار في الغرب التي تعرف بالفرويدية Freudian، اليونجوية Jungian ... وغير ذلك[2].

فقد عرض إدريس شاه الآراء الصوفية بشكل مفصل، وما فيها من رؤى وإسهامات مختلفة، فعلى الرغم من وجود أفكار نفسية مبتكرة في الغرب، إلا أنه أوضح وجود

---

[1] Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn "Psychology and Spirituality in the Sufi Way". P. 136.

[2] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 35.

أصول لها لدى الصوفيين في الشرق، مثل: اكتشافات فرويد Freud ويونج Jung التي نجدها لدى الغزالي وابن عربي اللذين توفيا في القرن الثاني عشر، وفي غيرهما من كبار المفكرين في ذلك الوقت؛ فقد كتب الغزالي على نطاق واسع عن التكييف أو التداعي Conditioning[1] ، وذلك ما أشار إليه الغزالي في كتابه "كيمياء السعادة" إلى الحجج التي وضعها فرويد في دراسته للحياة الجنسية، كما أن النظرية اليونجوية قد ذكرها ابن عربي؛ وذلك ما لاحظه البروفيسور "روم لانداو"[2]، كما استخدم الغزالي أسلوب عالم النفس فرويد في تفسير الرموز في كتابه "المشكاة"؛ وذلك قبل فرويد بحوالي تسعمائة عام[3].

ولذلك نجد أن الغزالي قد تناول في كتاباته معالجة النفس الإنسانية على أوسع نطاق؛ إذ تناول سلوك الإنسان في كل المجالات، سواء أكان مع نفسه، أم كان مع غيره من الناس، أم كان مع ربه؛ ومن ثم قام علم النفس الاجتماعي عند الغزالي على أسس غائية؛ فالإنسان في كل ما يصدر عنه ويفكر فيه يهدف إلى الطمأنينة لنفسه ورضاها الداخلي، وصلا حه مع الناس والمجتمع؛ ولذلك ينظر إلى الغزالي بمنزلة النابغة في علم النفس التربوي[4].

وكما نجد أن نظرية اللاشعور الجمعي[*] التي قال بها يونج؛ قد جاءت في بعض جوانبها ردا على نهج التحليل النفسي الذي وضعه العالم فرويد؛ وقد أفصح عنها ابن

---

[1] Shah, Idries. (1993). P.7- 8.

[2] إدريس شاه، الصوفيون، ص 123.

[3] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 59، في الهامش.

[4] نبيل موسى، موسوعة مشاهير العالم "أعلام علم النفس وأعلام التربية والطب النفسي والتحليل النفسي"، ج2، بيروت، دار الصداقة العربية، الطبعة الأولى، 2002م، ص ص 247، 248.

[*] اللاشعور الجمعي Collective Unconscious : وهو المقابل للشعور الشخصي؛ ولذلك يطلق عليه يونج أحيانا اسم اللاشعور اللاشخصي، وكان من أكثر المفاهيم التي قال بها تعرضا للجدال والخلاف، وقد وصفه بالجمعي؛ لأنه مخزن الذكريات والأفكار الجمعية التي كانت لنا لا بصفتنا الشخصية، ولكن بصفتنا كجنس إنساني، بل أيضا بصفتنا العامة جدا كجنس حيواني، وكلنا لدينا

رشد قبله، كما أشار إليها جلال الدين الرومي كثيرا، وكانت بمعناها موضع دراسة في التخصصات الصوفية، وقد رأي جلال الدين أن هذه الظاهرة تمثل جانب مهما من جوانب الوعي الإنساني[1].

وهكذا كشف لنا إدريس شاه مدى التشابه بين ما جاء به كبار أعلام المفكرين في الإسلام ولاسيما الصوفيين، أمثال: الغزالي، وابن رشد وابن عربي، وجلال الدين الرومي وبين علماء النفس المحدثين حول بعض النظريات؛ ومن ثم كان لهؤلاء الصوفيون السبق عليهم في ذلك.

وهنا أشار إدريس شاه إلى أن الصوفية غير قابلة للدراسة عن طريق علم النفس بالنسبة إلى الغربي؛ ذلك لأن الصوفية في حد ذاتها تعد نسقاً نفسانيا أكثر تقدما من أي نسق آخر معروف حتى الآن في الغرب، كما أن هذا النسق الذي تمثله الصوفية لا يعد شرقيا في جوهره، بل إنه إنساني، وهذا ما يؤكده عن طريق إقرار يونج أن مدرسة التحليل النفسي الغربية ليست سوى خطوة قام بها مبتدئ إذا ما قورنت بنظريتها في الشرق[2].

وهنا سوف نعرض في ايجاز لبعض هذه الجوانب بين الصوفيين في الشرق ولاسيما عند الغزالي وبين علماء النفس المحدثين في الغرب ولاسيما عند سجموند فرويد.

نجد أن هناك جوانب تشابه بين نظريتي الغزالي وفرويد ومنها: أولاً– كلاهما يضع تقسيما ثلاثيا للذات أو الشخصية؛ من أجل تفسير الجانب الوظيفي للنفس الإنسانية، إذ

هذا اللاشعور الجمعي، وهو بمنزلة استعدادات نتهيأ بها للتجاوب مع العالم؛ فمثلاً نلاحظ أن الناس جميعا لديهم الإستعداد للخوف من الظلام، وهذا الاستعداد يظهر نتيجة لخبرات حالية، غير أننا ورثنا هذا الاستعداد عن الأسلاف؛ ومن ثم فاللاشعور الجمعي يمثل الأساس العنصري الموروث الذي يقوم عليه البناء النفسي كله، وهو خبرات الأجيال، وحكمة القرون. (انظر: نبيل موسى، موسوعة مشاهير العالم "أعلام علم النفس وأعلام التربية والطب النفسي والتحليل النفسي"، ج2، ص ص 475، 476، مادة– اللاشعور الجمعي).

[1] إدريس شاه، الصوفيون، ص 555.

[2] إدريس شاه، الصوفيون، ص 123.

يظهر تقسيم كل من الغزالي (الأمارة، الملمتية، واللومة)، وفرويد (الهوية، والأنا، والأنا العليا) ثلاثة مستويات مترابطة تعمل على إدارة الذات الإنسانية، ثانيا- قد أشار كلٌ منهما إلى أن المستوى المهيمن على الذات ذو طبيعة مفرطة؛ إذ تحتوي النفس الأمارة عند الغزالي، والهوية Id عند فرويد على جميع الغرائز الأساسية وهي تمثل مذهب المتعة، ثالثًا- أشار كل منهما إلى أن هناك جانبا في الذات يوبخ ويراقب هذا المستوى المفرط والمتهور للنفس، وهذا ما نجده في النفس اللومة عند الغزالي، والأنا العليا Superego عند فرويد، رابعا- يتحدثون عن مستوى متوازن للنفس يسعى إلى حل الصراع بين الذات المهيمنة والعالم الخارجي أي: النفس الملمتية عند الغزالي والأنا ego عند فرويد، خامسا- المفهوم الفرويدي عن الوعي Conscious مشابه لمفهوم الغزالي عن قوة أو ملكة النفس، سادسا- يشبه المفهوم الفرويدي لحالة "ما قبل الوعي" Preconscious قدرة أخرى وصفها الغزالي تشير إلى تلك المنطقة من الدماغ المسئوولة عن الذاكرة والتذكر والأفكار، وما إلى ذلك، سابعا- يؤكد كل منهما دور الخبير في العلاج، وعلاج شخص ما من مرض داخلي؛ فهدفهم العلاجي هو شفاء الفرد من الأضطرابات النفسية(1).

وهكذا يتضح لنا إلى أي مدى استطاع الصوفيين الشرقيين وضع بعض الإسهامات المهمة في علم النفس، وذلك قبل علماء النفس في الغرب بمئات السنين؛ وهذه تعد من الأمور التي كشفها لنا إدريس شاه، وهنا نتساءل: كيف استطاع الصوفيون معالجة بعض آفات النفس؟

سابعًا- دور التربية الصوفية في علاج بعض آفات النفس.

(1) أهداف التربية الصوفية.

يعتمد المنهج التربوي الصوفي في جوهره على التنشئة أو التربية الروحية، وإعداد الذات؛ من أجل الارتباط بالله؛ إذ يجب على الصوفي أن يبحث عن أمراض النفس،

---

(1) Mobarak, Tanzia. (2022). "Variation" in Approaches to Human Psyche: Exploring Al-Ghazali`s Influence on Freudian Psychoanalysis". Comparative Literature: East & West: Vol.6. No.1. Routledge. P. 74.

ويشعر بها، كما يجب أن يعرفها حتى يحاربها؛ ولذلك يجب تنقية الدوافع والغرائز البشرية، مما يعني أن هذه التعاليم تهدف إلى تنظيم سلوكيات المرء[1].

ويعد التصوف بمنزلة سلوك، وذلك ما أشار إليه إدريس شاه من قول أبي حفص الحداد[*] (ت: 265هـ): "التصوف سلوك، لكل وقت سلوكه، ولكل حالة سلوكها، ولكل موضع سلوكه، ومن يسلك السلوك الملائم لكل مناسبة يصل إلى بغيته، أما ذلك الذي لا يلتفت إلى قواعد السلوك فهو بعيد عن عقلية الوصول" [2]؛ ولذلك فممارسة الفرد السلوك المناسب في كل فعل يقوم بها؛ حتى يمكنه الوصول إلى هدفه الأساسي.

فقد كان هدف الصوفي يتمثل في تنمية الذات وليس إنتاج ردود أفعال مشروطة، أي: أنه يتدخل لتوفير الدافع المناسب في الوقت المناسب للشخص المناسب، ومع ذلك يعد مثل هذا النشاط فوضويا من قبل أولئك الذين لا يستطيعون إدراك هذا الهدف[3]، وهنا يشير إلى قول أحد الصوفيين "السيد إمام علي شاه": "... الصوفية تعني أن تكون واعيا لما تفعله، فلا تعتقد أنك تعي ما لا يعنيك، والصوفية فن تهدئة ما يجب تهدئته وتغيير ما يمكن تغييره، ولا تعني بتهدئة ما لا يمكن تهدئته أو تغيير ما لا يمكن تغييره أو بعمل هذا الشيء أو ذاك في وقت غير مناسب..." [4].

ولذلك تساعد التعاليم الروحية للصوفية في تحسين وعي الفرد؛ حتى يصل إلى إشراق الحقيقة، التي تنفصل عن الأنشطة المألوفة في العالم؛ إلا أن هذا لا يجعلنا نعد التصوف بمثابة سحر أو شعوذة؛ لأن هذا من سوء الفهم لحقيقة التصوف؛ وذلك ما وجده إدريس شاه على سبيل المثال في كتاب "ضياء القلوب" الذي هو من بين كتابات

---

[1] Khateeb, Omar Al. (2020). “Sufism Methodology & Its Educational Application”. Journal of Studies in Education: Vol.10. No.1. P.70.

[*] يقول أبو حفص الحداد: "... التصوف كله آداب، لكل وقت أدب، ولكل حالة أدب، ولكل مقام أدب؛ فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب؛ فهو بعيد من حيث يظن القرب ...". (انظر: السهروردي "شهاب الدين أبي حفص عمر"، عوارف المعارف، ج1، تحقيق: عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، القاهرة، مطبعة السعادة، (د.ت)، ص 203).

[2] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 246.

[3] Shah, Idries.(1997). The Commanding Self. P.3.

[4] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 291.

أخرى؛ التي أوضحت أن الاعتقاد بأن الصوفي إما يرغب أو يمكنه تحقيق التماثل مع الله بمعنى اكتساب الصفات أو القوى الإلهية، ينتمي إلى التفكير السحري وليس الصوفي، وهذه المعاني الخاطئة العرضية؛ ترجع في الحقيقة إلى عدم المعرفة[1].

وتهدف التربية الصوفية إلى علاج ما يعده الصوفيون نقصا أساسيا في الجنس البشري بشكل عام، وهذا يعني أنه يجب معالجة المشكلة الأساسية وليس الأعراض، وهذا الدور الأساسي الذي يهدف إليه التعليم الصوفي؛ إذ يحتاج الشخص إلى نوع من العلاج النفسي والشعور بالطمأنينة، وهذا ما يقوم به التصوف؛ ولذلك يتعين على الصوفيين أن يمهدوا الطريق لفهم هذه الأمور الأساسية، ولكن هذا لا يعني أن الصوفي يريد من الناس التخلي عن أي شيء يعرفونه بالفعل[2].

وهنا يتساءل إدريس شاه: كيف يمكن إزالة الرذائل والعيوب؛ حتى يصير الإنسان ر وحانيا حقًا بالمعنى الصوفي؟ نجد أنه هناك العديد من التفسيرات عن المجاهدات والنضالات التي قام بها الصوفيون ضد الرذائل والخطايا، ولكنه يرى أنه لا شيء من هذه الأمور يتوافق مع التشخيص الصوفي الصحيح أو الممارسة أو الخبرة الصوفية؛ فقد لاحظ أنه يمكن أن تساعد الروحانية الصوفية الشخص على التعامل مع ما نسميه بـ "الراذئل والعيوب"، ولكن هذا لا يعني الانغماس المطلق في أنشطة تهدف إلى محاربة الاغراءات أو الرذائل؛ فالذي يجب فهمه هو أن الصوفيين لا يعارضون العاطفة الإنسانية، ولكنهم فقط ضد النشاط المفرط للعاطفة؛ لأنه يؤدي إلى القداسة المتطرفة والتجارب الروحية الزائفة، وهذا يعني أن نظام التعليم الصوفي يحتاج أولًا إلى حث المتعلم على اتخاذ الحد المعتدل من العاطفة؛ من أجل إداء الوظائف المختلفة[3].

ولذلك يعد التصوف هو أحد مجالات الدراسات الإسلامية التي تركز على تطهير جوانب الإنسان الروحانية، والتي بدورها تثير فضائل الشخصية النبيلة، وقد عرف تطهير الجانب الروحي للإنسان بالبعد الباطني للذات البشرية، فعن طريق الصوفية

---

(1) Shah, Idries. (1993). “Sufi Spiritual Rituals and Beliefs”. P.1.

(2) Shah, Idries. (2000). A Perfumed Scorpion. P. 17.

(3) Shah, Idries.(1997). The Commanding Self. P. 48.

يمكن للشخص أن يكتشف طرقًا للقيام بتنقية ذاته، ويصبح قادرا على التحكم في نفسه، وكذلك يمكنه الحفاظ على نقاء قلبه وإخلاصه[1].

ويمكن القول إن ما تهدف إليه التربية الصوفية يصلح لتنشئة الأفراد في المجتمع؛ وذلك ما دعت إليه من تحسين وعي الأفراد عن طريق قيادة ذاتهم، وكيفية مواجهة العيوب والرذائل؛ ومن ثم لا تنفصل الحياة الباطنية عن الحياة الإنسانية، هكذا بعد أن أوضحنا أهم ما تهدف إليه التربية الصوفية عند إدريس شاه، ننتقل إلى توضيح دورها في معالجة بعض آفات النفس.

(2) دور التصوف في معالجة بعض آفات النفس.

يشير إدريس شاه إلى قول الإمام علي "رضى الله عنه":

"دواؤك فيك وما تشعر وداؤك منك وما تبصر"[2].

ويذهب إلى أنه في أحايين كثيرةٍ يشعر الإنسان بحالة من اليأس، وهي من الأمور التي تجعله أكثر قلقاً على مستقبله؛ إذ إنه يشعر أن الأخرين ليس لديهم أي شيء من هذه المشاكل، ولكن يرى إدريس شاه أنه من المحتمل أن يواجه أي شخص مشاكل في حياته، ولكن الأهم هو طريقة التعامل مع هذه المشكلات[3].

وقد يستخدم المحتالون والمتصوفون المزعومون حجة حل المشكلات؛ لإبقاء الناس مشغولين، في حين تأتي الحلول عن طريق المعرفة؛ ولذلك فحينما توجد معرفة حقيقية لا توجد مشكلة حقيقية[4] ؛ إذا يعتمد هؤلاء الدعاة والمعلمون المخادعون في نجاحهم على الجهل المقارن لجمهورهم؛ ومن ثم فأن مشكلتنا الرئيسة هي المعرفة النسبية للجمهور؛ لأنهم يعرفون بعض الأشياء بشكل عفوي أو متحيز، في حين أنه يجب أن

---

[1] Umam, Hoerul & Suryadi, Lyad. (2019). "Sufism as A Therapy in the Modern Life". P.34.

[2] إدريس شاه، طريقة الصوفي، ص 292.

- CP: Shah, Idries. (2004). The Way of the Sufi. the Octagon Press. London, P. 224.

[3] Shah, Idries. (1992). Seeker After Truth, "From Jales, Discussions and Teachings, Letters and Lectures. P. 37.

[4] Shah, Idries. (1991). Reflections. P.37.

نتعلم الحقائق الأساسية والمعلومات ووجهات النظر الممكنة من دون أن نأخذها بوصفها أمور مسلم بها[1]، وهكذا فعن طريق المعرفة الحقيقية يمكننا حل أي مشكلات تواجهنا.

ويذهب إدريس شاه إلى أن الشخص الذي يريد شيئًا مثل: التقدم أو تيسير الأمور من دون أن يقوم بشاط أو بذل جهد لذلك؛ فهذا يعود إلى الطمع، وعدم الرضا؛ إذ إنه يريد تقدم تلقائي من دون جهد، وهنا يقول: "... إذ كنت كسولًا، وأشار إليك شخص ما بذلك؛ فإن هذا يمنحك فرصة للتحسين؛ إذ إن الكسل هو دائما خطأك..."[2]، وهنا لا يمكن حل أي مشكلة حقًا بمجرد افتراض أنه يمكن حلها؛ إذ إن حلها يكمن في العمل الجاد أكثر من أن يكمن في الخمول والتقاعس عن العمل[3]؛ ومن ثم فيمكن مواجهة آفة الكسل والتقاعس عن العمل عن طريق تحسين أداء الإنسان في قدرته على العمل للشعور بالتقدم.

كما يرى أن الضغوط التي توجد داخل الفرد، وتسبب له الألم، وقد يصل الأمر إلى درجة الانهيار، وتكون هذه الضغوط بسبب بما تنطوي عليه نفسه من صراع يحدثه الغرور، وأن هذه الحالة يصعب علاجها، ولكن عن طريق قيادة الذات والتحكم فيها يمكن التغلب على هذا عن طريق إقناع المريض بأن تلك الأعراض جزء أساسي من الشخصية، وهنا سيتخيل المريض باستمرار عدم قدرته على العودة إلى القوام الصحيح، إلا إذا أدرك الحقيقة وأصبح أكثر اعتدالًا، وتواضعا، وأقل تأكيدا على الذات؛ ولهذا السبب يستبعد معلموا الصوفية الغرور عن المجال الروحي عن طريق تشجيع تلاميذهم على توجيه أنشطتهم في قيادة الذات بعيدا عن أي ميول دنيوية، مع الاستمرار في

---

(1) Shah, Idries. (1992). Seeker After Truth, “From Jales, Discussions and Teachings, Letters and Lectures. P.96.

(2) Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn “Psychology and Spirituality in the Sufi Way”. PP. 92, 269.

(3) Shah, Idries. (1991). Reflections. P.37.

دراسة الطريقة الصوفية بطريقة متواضعة وغير ذاتية[1]، وهكذا فعن طريق التواضع والاعتدال يمكننا التخلص من آفة الغرور.

وهنا يذهب إدريس شاه إلى أن التواضع Humility لا يمكن تعلمه عن طريق الداعية، رغم أن العبودية يمكننا تعلمها، وذلك لأن التواضع الحقيقي يختلف عن التواضع الظاهر، كما أن محاربة الغرور الذاتي مازال صراعا، وأن الشخص الذي يميل إلى قمعه مؤقتا، فأنه لا يعالج أي شيء من آفات النفس، ولذلك فالتواضع لا يأتي بصورة تلقائية، بل إنه وسيلة لتحقيق غاية، تمكن الشخص من العمل بطريقة سوية[2]؛ ومن ثم فأنه أكد أهمية وجود التواضع بين الناس؛ وذلك بما يجدونه مفيدا للمجتمع، إذا يجعل الناس صالحين ونقيين،... إلخ، وهذا هو المستوى الاجتماعي وليس المستوى الميتافيزيقي، فإذا كان الفرد متواضعا فإن هذا مثمر له في حياته اليومية، وإذا لم يكن كذلك فإنه لم يستطع تحقيق أهدافه[3].

وكما يشير إدريس شاه إلى أنه إذا كانت رغبة المرء في الخير مبنية على الجشع؛ فهي ليست خيرة، ولكن عكس ذلك؛ لذا إذا قال شخصا ما: "لا تكن جشعا أو طماعا، كن كريما"؛ فيمكن تفسير ذلك بطريقة تحسن أو تطور جشع المرء إلى الكرم[4].

وذلك لأنه يرى أن الكرم الحقيقي يحدث حينما يفعل المرء شيئا كريما، ولا يعرفه أحد، أو حينما يعرف الأخرون شيئا عن ذلك؛ فأنه يرفض الحصول على أي تقدير على كرمه، سواء من المتلقي أو أي شخص أخر؛ فالكرم الحقيقي هو مجهول الاسم إلى الحد الذي يجب أن يكون فيه المرء مستعدا ليعد نفسه غير كريم بدلا من شرح ذلك للآخرين، وهذا المفهوم للكرم قد يكون في السلع، وفي العمل، وفي الفكر، وهو يتم تربيته في نفس المرء، كما يتميز الكرم أيضا بفعل ما يقول المرء أنه سيفعله؛ ولذلك أوضح إدريس شاه أن عدم الجشع هو الصورة المثلى لاهتمام الفرد بمصالحه الحقيقية؛

---

(1) Shah, Idries.(1997). The Commanding Self. P. 7.

(2) Shah, Idries. (1991). Reflections. P.21.

(3) Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn "Psychology and Spirituality in the Sufi Way". P. 68.

(4) Ibid, PP. 91, 158.

إذ إن الجشع يؤذيك، والكرم يساعدك، ولهذا قيل أن "الجشع منشأ العجز"، والمراد بالعجز هنا أي: عدم القدرة[1].

وهنا يتساءل إدريس شاه: كيف نجعل -على سبيل المثال- الجشع البشري دافعا جديرا بالثناء والتقدم؟ يجيب عن ذلك بأنه يمكن للمرء توجيه قدر معين من طاقته إلى نواحٍ بناءة وإيجابية، وحينما يعرف ما الذي يتعامل معه، وكيفية التعامل؟ فالحل الذي أوضحه هو "لا تكن جشعا- كن بناء"؛ فبدلًا من أن يفترض المرء أن الجشع أو الطمع شيء طبيعي، ينبغي أن يرى ذلك على أنه خلل ولابد من إصلاحه[2]، وهكذا فعن طريق معرفته أن هذا الجشع يمثل عجزا لديه؛ ومن ثم فعليه مواجهته، والتخلص منه.

وهكذا كان للتصوف دور مهم في معالجة آفات النفس، ومواجهة أية مشكلات؛ وذلك عن طريق قيادة الذات، وتحسين وعي الفرد، والمعرفة الصحيحة بحقيقة الأمور، واتخاذ حد الاعتدال أي الوسط في حياته وهذا ما تهدف إليه التربية الصوفية.

ثامنًا- نتائج البحث:

لقد حاولنا في أثناء تناولنا هذا البحث أن نعالج الفروض والتساؤلات التي طرحناها في مقدمته والتي تجسدت بصورة رئيسة حول: التصوف طريقة للعلاج في فكر إدريس شاه، وفي خاتمة البحث نحاول إجمال ما توصلنا إليه من نتائج، وهي على النحو الآتي:

(1) لقد شغل المفكر الصوفي المعاصر "إدريس شاه" اهتمام الباحثين الغربيين؛ وذلك عن طريق مؤلفاته الكثيرة باللغة الإنجليزية، التي اختصت بشأن التصوف، وقد أسهمت بدور مهم في تعريف الغرب على مكانة التصوف الشرقي، فكان المصدر الرئيس الذي اعتمد عليه يتمثل في تراث الأدب الصوفي الأصيل، كما أنه كشف عن رؤى ومفاهيم جديدة للصوفية؛ وذلك عن طريق ربطه بين التصوف والواقع المعاصر؛ وتوضيحه الجوانب النفسية، والأخلاقية، والاجتماعية عند الصوفيين،

---

(1) Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn "Psychology and Spirituality in the Sufi Way". PP. 133- 134.

(2) Shah, Idries. (2000). A Perfumed Scorpion. P. 181.

ومن ثم توصف كتاباته بعمق الفهم، والثراء المعرفي، وجدة الموضوعات، كما أنها تساعد على تنمية الوعي لدى الأفراد.

(2) يعد الصوفي هو ذلك الشخص المدرك لدراسة التصوف، والمتعمق فيها؛ ومن ثم فيجب علينا التفرقة بين الصوفيين الحقيقيين وبين المهتمين بمجال التصوف، أو ما يدعون أنهم صوفيون، ولما كانت الصوفية فلسفة تهدف إلى التصحيح والرقي بالفكر، وتدعو إلى الحب؛ ومن ثم ارتبط التصوف بالعلاج؛ ذلك لأن العلاج أمر يمارسه الصوفيين لمعالجة وإصلاح آفات النفس؛ إلا أن ذلك لا يعني أن الصوفي شخص قادر على علاج المرضى، أو أن لديه المعجزات والكرامات، بل إن الصوفي هو ذلك الشخص الذي وصل إلى درجة عالية من المعرفة والإدراك؛ فقد تجاوز إدراك ما هو ظاهر إلى إدراك ما بداخله؛ وذلك بما لديه من العلم بآفات القلوب، وكمالاتها، ويستطيع عن طريق ذلك إرشاد المريض ودفعه إلى تحقيق توازنه وانسجامه؛ ومن ثم يصبح المريض قادرا حل أية مشكلات يعاني منها، فعلاج المريض يتمثل في استعادة التوازن له.

(3) تختلف المعرفة الصوفية عن معرفة الإنسان العادي للتصورات البشرية المعتادة أو المألوفة؛ إذ إن المعرفة الصوفية تمتاز بعمقها، فلا يمكن للإنسان العادي إدراكها؛ فهي تتضمن تمارين وتجريب وممارسات، ولكنها لا تتحدى قدرات الإنسان العادي، فعلى الرغم من عمقها وصعوبتها؛ فإنها تساعد في تحسن وعي الفرد، وارتقائه، وسموه؛ حتى يصل إلى الإدراك الحقيقي؛ ومن ثم جمعت المعرفة الصوفية عند إدريس شاه بين النظرية والممارسة؛ فلا يمكن أن تقتصر على الجانب النظري من دون الممارسة؛ ذلك لأنها سوف تصبح مجرد آراء فردية ذاتية، فلا يمكن تقييمها؛ ومن ثم تفتقر إلى الموضوعية؛ ولذلك فتعتمد الصوفية على الممارسات التي يقومون بها، كما أنه لم يرفض المعرفة النظرية التي تحصل عن طريق الكتب وغيرها من الوسائل؛ فيمكن وصفها بأنها مثمرة؛ ذلك حين استخدامها واتصالها بثقافة العصر؛ وعلى الرغم من وجود بعض الممارسات الخاطئة التي استخدمت حديثًا؛ لسوء الفهم، وتنسب إلى الصوفية؛ فإن التصوف يعد بمنزلة المنبع الرئيس

لكثير من العلوم والفنون والآداب؛ فلا يمكننا وصفه بأنه يمثل نوعا من أنواع السحر أو الممارسات المشعوذة؛ وذلك فقد أكد إدريس شاه أن المعرفة الصوفية لا يمكن أن تنفصل عن الحياة الإنسانية؛ إذ إن معرفة الصوفي ليست منفصلة عن طريقة تفكير مجتمعه، فالمرء يمكن معرفة ذاته عن طريق تقييم الآخريين له.

(4) يعد التصوف عند إ دريس شاه بمنزلة تعليم؛ إذ إنه يتضمن مقدارا معرفيا ينقله المعلم أو المرشد الصوفي لمريده الذي يرغب في الوصول إلى الفهم الحقيقي للأشياء، ولكن تختلف دراسة أو تعليم التصوف عن أي دراسة أخرى، فلا يعد التصوف دراسة مدرسية لها موادها المحددة، بل يأخذ التصوف مواده من أشكال التجربة الإنسانية كافة، التي تتمثل في نظرة الصوفية إلى الحياة والفكر والسلوك، وتبرز أهمية التعاليم الصوفية عند إدريس شاه، عن طريق قيمتها التقدمية؛ التي تتمثل في تطبيقاتها المعاصرة، فلا يمكن أن تكون مجرد تقليد أو تكرار لممارسات الصوفية، وإلا أصبحت لا فائدة منها؛ وذلك ما يميز المعلم الحقيقي عن المعلم الزائف الذي يعمل على تكرار الموروث؛ فالصوفية عبارة عن إرشاد؛ إذ يساعد المرشد الصوفي المرء الذي لديه الرغبة والاستعداد للتعلم؛ من أجل من تطوير ذاته؛ ذلك لأن رغبة المريد في التعلم لابد من أن تكون موجهة للتقدم؛ لأن الإنسان هو نتاج التطور؛ ومن ثم فعليه أن يشارك في تطوير ذاته، ولكن نظرا لأن تصوراته للأشياء محدودة وذاتية؛ فإنه يحتاج إلى مرشد لديه معرفة خاصة؛ من أجل الوصول إلى حالة عليا من الإدراك والفهم؛ ومن ثم تبرز لنا أهمية المرشد في توجيه طلابه إلى النهج الصحيح لفهم الأفكار الصوفية.

(5) يمثل التصوف عند إدريس شاه احتياجا ضروريا للمجتمعات الإنسانية في واقعنا المعاصر؛ فلا يختص بطبقة محددة أو جنس معين؛ فهو أمر فطري في النفس الإنسانية؛ إذ إنه لم يمثل جزءا من الحياة، بل أنه الحياة ذاتها، فهو بمنزلة طريقة في الحياة تحقق للفرد كماله؛ وذلك عن طريق التوزان بين الحياة الروحية والحياة المادية، ولذلك فالصوفية تصلح لأن تطبق في أي مجتمع وفي أي وقت؛ أي: أن المرء يستطيع أن يحيا حياة صوفية في أي مكان وفي أي زمان؛ ومن ثم يصبح

هدف التصوف هو خدمة البشرية، وذلك ما أوضحه إدريس شاه بأن المتطلبات التي يمارسها الصوفي من أجل العيش والعمل تناسب جميع الأعمال في المجتمع؛ وعليه كانت الصوفية في ازدياد مستمر؛ لتتداخل واتصال حدود الصوفية مع الوجود البشري.

(6) كان ارتباط التصوف بعلم النفس، من الجوانب الجديدة المهمة التي كشفها لنا إدريس شاه في كتبه العديدة، ولاسيما كتابه: "تعلم كيفية التعلم"،؛ وهذا ما جعل للتصوف طبيعة حقيقية واقعية، يمكن التحقق منها عن طريق تقييمها؛ فقد ساعد علم النفس الصوفي الأفراد من تطوير صفاتهم وقدراتهم؛ حتى يستطيعوا التعامل مع المشكلات المختلفة، وذلك بالتغلب والسيطرة عليها، عن طريق التوافق والتناغم مع الوجود الإنساني، كما استخدم إدريس شاه القصص التعليمية وهي عبارة عن سرد لحكايات الصوفيين؛ وذلك بوصفها وسيلة لتصحيح الحالات النفسية، فهي تنمي قدرة الفرد على الانتباه، وإدراك وملاحظة الأشياء؛ حتي يكون قادرا حل المشكلات النفسية؛ فعن طريق عامل الانتباه يمكن للمرء التخلص من مصادر التفكير العشوائية، التي تسبب له تصورات خاطئة في حكمه على الأشياء؛ ولذلك أرى أن إدريس شاه يرجع له الفضل في الكشف عن بعض إسهامات الصوفيين الشرقيين في مجال علم النفس التي كانت تسبقٍ علماء النفس الغربيين بمئات السنين؛ وعليه يمكن القول إن الصوفية تمثل نسقًا نفسانيا يتجاوز ما أحرزه علماء النفس في الغرب.

(7) لقد كانت للتربية الصوفية عند إدريس شاه جوانب علاجية تصلح لتهذيب النوع البشري في واقعنا المعاصر؛ فلا تنفصل التعاليم الروحية عن الحياة الإنسانية، بل إنها تدعو إلى تحسين وعي الفرد، وتنمية ذاته؛ ذلك بإدراكه قيمة ما يفعله؛ حتى يحقق هدفه؛ فالصوفي هو من يكون واعيا لما يفعله؛ ومن ثم جمعت التربية الصوفية بين النزعة الروحية والنزعة الإنسانية؛ وذلك عن طريق اتخاذ الحد المعتدل والوسط من العاطفة، وليس محاربتها تماما، أو القضاء عليها، والتعامل مع العيوب والرذائل، وتنمية الفضائل؛ حتى يمكننا تحقيق السعادة؛ وعليه تساعد التربية

الصوفية في معالجة بعض آفات النفس؛ وذلك عن طريق الاعتدال في أي أمر وليس الأفراط فيه، كما أننا عن طريق معرفتنا الحقيقية للأشياء يمكننا مواجهة أي مشكلة؛ ومن ثم قدم التصوف طرقًا تساعد المرء على تهذيب أخلاقه، وتهيئة ذاته.

وهنا نرى أن إدريس شاه قد استطاع أن يقدم رؤية جديدة لما يجب أن تكون عليه الصوفية؛ وذلك عن طريق نظرته إلى المجتمع المعاصر؛ وهذا ما يؤكد ويدل على أهميته الواضحة في الفكر الصوفي؛ فقد عمل على التوفيق بين الأصالة والمعاصرة؛ إذ إنه اهتم بالتراث الصوفي، وأبرز مكانته في جوانب الحياة المختلفة؛ فقد كشف لنا عن دور الصوفيين الشرقيين وإسهاماتهم المختلفة في معالجة وإصلاح بعض المشكلات الاجتماعية والنفسية والأخلاقية، كما اهتم أيضا باحتياجات المجتمع المعاصر؛ ومن ثم فكان شرحه للفكر الصوفي عن طريق نظرته إلى الحياة والكون؛ وعليه فالصوفية ليست انعزالًا عن الحياة، بل إنها الحياة ذاتها.

تاسعًا- توصيات البحث:

(1) تبني دراسات بينية مختلفة، بين التصوف والعلوم الأخرى ولاسيما: علم النفس، والانثروبولوجيا؛ وذلك لبيان الجوانب المتشابهة بينهم، والكشف عن إسهامات التصوف في هذه العلوم.

(2) ربط دراسات التصوف بالحياة؛ ذلك عن طريق توضيح صلتها بالمجتمع الحالي، أو ما يسمى بواقعنا المعاصر، وليس دراسات جامدة للنظريات الصوفية.

(3) البحث في التطبيقات المعاصرة للأفكار الصوفية، ودورها في إصلاح المشكلات المجتمعية والتربوية والنفسية.

(4) دراسة التصوف دراسة حداثية وفقًا لمتطلبات العصر وتحدياته متخذ من الدين والعلم منهجا بغية العلاج والوصول إلى المعرفة الحقيقية لدى الأفراد.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا- مؤلفات إدريس شاه المترجمة إلى العربية:

1- إدريس شاه، الصوفيون، ترجمة. بيومي قنديل، تقديم. هالة أحمد فؤاد، القاهرة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الثانية، 2015م.

2- إدريس شاه، طريقة الصوفي، ترجمة: سماء زكي المحاسني، بيروت، مؤسسة الوفاء، الطبعة الأولى، 1989م.

ثانيًا- المصادر العربية:

3- ا بن حزم الأندلسي "أبي محمد علي بن أحمد"، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، قرأه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه. طارق بن عبد الواحد بن علي، الإسكندرية، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، 1438هـ.

4- الرومي "مولانا جلال الدين"، مثنوى، ج1، ج3، ترجمه وشرحه وقدم له: إبراهيم الدسوقي شتا، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1996م.

5- السراج الطوسي "أبي نصر"، اللمع، حققه وقدم له وخرج أحاديثه: عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، القاهرة، بغداد، دار الكتب الحديثة، ومكتبة المثنى، 1960م.

6- السهروردي "شهاب الدين أبي حفص عمر"، عوارف المعارف، ج1، تحقيق: عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، القاهرة، مطبعة السعادة، (د.ت).

7- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، (د.ت).

8- القشيري "الإمام أبو القاسم"، الرسالة القشيرية، تحقيق: العارف بالله الإمام عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، القاهرة، مؤسسة دار الشعب، 1989م.

ثالثًا- المراجع العربية:

9- أبو العلا عفيفي، التصوف. الثورة الروحية في الإسلام، دار الشعب للطباعة والنشر، بيروت.

10- مصطفى غالب، جلال الدين الرومي، بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، 1982م.

رابعًا- المعاجم والموسوعات العربية:

11- رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، 1999م.
12- عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة، مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة، 2000م.
13- عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، القاهرة، دار الرشاد، الطبعة الأولى، 1992م.
14- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، 2004م.
15- نبيل موسى، موسوعة مشاهير العالم "أعلام علم النفس وأعلام التربية والطب النفسي والتحليل النفسي"، ج2، بيروت، دار الصداقة العربية، الطبعة الأولى، 2002م.

خامسًا- مؤلفات إدريس شاه باللغة الإنجليزية:

16-Shah, Idries. (1968). Special Problems in the Study of Sufi Ideas. (Second Edition). Published by: the Society for the Understanding of the Foundation of Ideas. England.
17-Shah, Idries. (1993). Learning How to Learn “Psychology and Spirituality in the Sufi Way”. Published by: Penguin Group. England.
18-Shah, Idries. (2000). A Perfumed Scorpion. The Octagon Press. London.
19-Shah, Idries. (1969). Tales of the Dervishes “Teaching- Stories of the Sufi Masters over the Past Thousand Years”. E. P. Dutton & Co., Inc. New York.
20-Shah, Idries. (1972). The Exploits of the Incomparable Mulla Nasrudin. (First Published). E.P. Dutton & Co. Inc. New York.
21-Shah, Idries. (1991). Reflections. The Octagon Press. London.
22-Shah, Idries. (1992). Seeker After Truth, “From Jales, Discussions and Teachings, Letters and Lectures. the Octagon Press. London.

23-Shah, Idries. (1993). "Sufi Spiritual Rituals and Beliefs". in: Sufi Thought and Action. Assembled by: Idries Shah. The Octagon Press. London.

24-Shah, Idries. (1997). The Commanding Self. The Octagon Press. London.

25-Shah, Idries. (2002). Neglected Aspects of Sufi Study. The Octagon Press. London.

26-Shah, Idries. (2004). The Way of the Sufi. the Octagon Press. London.

سادسًا- المراجع الأجنبية:

27-Munro, M. (2021). "The Mountain Path: on a Lesson of Fred Moten`s". in: The Map and the Territory. Published by: Punctum Books. Jstor.

28-Sedgwick, Mark. (2017). Western Sufism "From the Abbasids to the New Age". Oxford University Press. New York.

29-Toguslu, Erkan & Leman, Johan. (Eds). (2014). Modern Islamic Thinking and Activism. Published by: Leuven University Press. Jstor.

سابعًا- المعاجم والموسوعات الأجنبية:

30-Jones, Barry. (2013). Dictionary of World Biography. Australian National University E Press. Australia.

31-Wolff, Anita. (Ed). (2006). Britannica Concise Encyclopedia. Chicago, London, New Delhi, Paris, Seoul, Sydney, Taipei, Tokyo.

ثامنًا- الدوريات الأجنبية:

32-Umam, Hoerul & Suryadi, Lyad. (2019). "Sufism as A Therapy in the Modern Life". International Journal of Nusantara Islam: Vol.7. No.1.

33-Hill, Joseph. (2019). "Sufism between Past and Modernity". in: Woodward, M. & Bull, R. Lukens. (Eds). Handbook of Contemporary Islam and Muslim. Springer Nature. Switzerland.

34-Khateeb, Omar Al. (2020). "Sufism Methodology & Its Educational Application". Journal of Studies in Education: Vol.10. No.1.

35-Mobarak, Tanzia. (2022). "Variation" in Approaches to Human Psyche: Exploring